٦٧

مجلة
روايات أحلام

أنت قدري

Aml
www.liilas.com

١ ـ غريبان في مصعد

نظرت ترايسي تشسترتون إلى الأعلى بارتباك تاركة اصبعها على الزر المكتوب عليه الرقم سبعة ولكن كما حدث مرات عدة في المرة الأخيرة، أضيء الرقم سبعة على اللوحة فوق الباب، وتوقف المصعد بنعومة ثم عاد ينزل من جديد بدون ان تنفتح الابواب، والأسوأ من هذا أنه تصرّف التصرف ذاته في الطابق الثاني. توقف المصعد ثم وقبل أن تنفتح الابواب عاد يرتفع حتى توقف في الطابق السابع مجدداً. ولكن الابواب هذه المرة انفتحت وفيما كانت ترايسي على وشك الخروج منه ممتنة دخل رجل طويل بسرعة وكاد يوقعها.

شهقت عندما عادت الابواب تنغلق على ذاتها:

ـ اوه.. لا! انظر.. انظر الآن ماذا فعلت!

كانت تصيح وقد ابيضّ وجهها ذعراً، خاصة وهي ترى تنورتها عالقة بين الأبواب الموصدة.

رد الرجل:

ـ ماذا فعلت أنا؟ آه، فستانك.. مهلك لحظة، لا داعي...

ثم توقف عندما شدت ترايسي تنورة فستانها بعنف فانسلت من بين الابواب مرفقة بصوت تمزق حاد.

قال بلطف وهو ينظر إلى التنورة الممزقة من الخصر حتى الاطراف، ولم يكن السبب إلا تصرّف ترايسي المذعور:

ـ لم تكوني بحاجة لهذا.

ـ بلى. فأنت لا تفهم.. إن هذا المصعد يصعد وينزل كما يحلو له. سترى أنه سينزل من جديد، لو ظل ثوبي عالقاً بالابواب.. لكنت،

www.liilas.com

اصابني أي شيء . . .

كانت قانعة بما جرى لفستانها ولكن لم يلبث أن اشتد شحوبها وخرت على ركبتيها، فقد شعرت بالمصعد ينحدر بقوة قبل أن يتوقف فجأة . . ابتلعت ريقها بصعوبة ورفعت يدها إلى فمها تتمتم:

ـ أحس بالغثيان .

قال لها مرافقها بشيء من التسلية، وهو يركع إلى جوارها:

ـ لو كنت مكانك لحاولت ألا أفكر في الأمر .

رفعت بصرها إلى العينين السوداوين الناعستين المظللتين بشعرٍ أسودٍ موشى بالرمادي وإلى الوجه الأسمر . وسألت مرتجفة:

ـ أين نحن الآن؟ في أي طابق؟

رفع رأسه ينظر إلى اللوحة الموجودة فوق الباب:

ـ إننا بين الثالث والرابع، فالرقمان كلاهما مضاءان، ويبدو أننا عالقان .

صاحت ترايسي متأثرة:

ـ أكره المصاعد! وطالما كرهتها . . كنت أحس دائماً أنني سأعلق في مصعد يوماً . .

رفع الرجل حاجبيه بحيرة ولكنه قال بلطف:

ـ لو ينظر المرء إلى الاحصائيات لوجد أن ركوب المصعد آمن من معظم وسائل النقل .

قالت بحماس وهي تلتفت إليه:

ـ ربما أنت على حق . ولكنني أخشاه هو مع العلم أنني مستعدة لركوب الطائرة أو لاعتلاء صهوة جواد دون أقل وجل في مطلق الأوقات . . ثم إنني لا أرى كيف لك أن تفكر في الإحصائيات ونحن في موقف كهذا، فمن الممكن أن ننتهي كرقم في احصائية! فلربما انقطعت الكابلات ولعل هذا هو سبب تصرفه الغريب . . كما من الممكن أن ينزلق بنا المصعد إلى القعر فنتحطم!

قال بهدوء:

ـ هاي . . . صدقيني . هذا غير معقول . . فلا تخافي .

كان قد جلس أرضاً وجذبها إلى حجره كطفل صغير لكنها قاطعته:

ـ نعم أنا خائفة . ألا ترى . . لقد علقت هنا منذ فترة طويلة، و . . .

قاطعها بحزم:

ـ لن نقع أو نتحطم . . المشكلة لا تتعدى عطلاً في الكهرباء، وسرعان ما يعرف أحد بهذا، لأنني ضغطت جهاز الإنذار . . ماذا قلت اسمك؟

ـ ترايسي . . على الأقل أنا لم . . .

ـ ترايسي . . . يعجبني الاسم فله وقع رائع وقوي .

نظرت إليه بحرارة:

ـ ليتك تعرف كم من الغضب يثيره فيك مناداة الناس لك بترايسي باربرة . . .

صمتت فجأة، وهي تشعر به يمرر يده على شعرها كما كان يفعل والدها . . ثم عضت شفتيها وقالت بصوت منخفض:

ـ آسفة . . ألا أبدو سخيفة؟ المسألة كل المسألة أنني خائفة . .

ـ أعرف، ولكن لخوفك مبرّراً، فأنت تخشين المصاعد ولست الوحيدة التي تعاني من هذا .

ردت دهشة:

ـ اعتقد أن السبب الخوف من الاحتجاز! أليس الأمر غريباً؟

استرخت قليلاً وفكرت في الأمر فتحوّل مسار تفكيرها عن هذه الأفكار، وجدت نفسها تشعر بالأمن والراحة وهي في حضن رجل تلتف ذراعاه حولها . . .

انتفضت مذعورة، وكان يمكن أن تنزل عن ركبتيه لو سمح لها بذلك . . . التوى فمه وهو يلاحظ تورّد وجهها وعمّت عينيه الناعستين البسمة .

تمتم: «ما الخطب الآن»؟

عرفت أنه يعرف تماماً «ما الخطب» كما عرفت أنه يستطيع قراءة

أفكارها وكأنها مكتوبة على وجهها، همت بالكلام ولكنها عادت فامتنعت عن ذلك.

ـ كم عمرك.. ترايسي؟

ردت بسخط: «ثمانية عشر عاماً. ولماذا تريد معرفة عمري؟».

ـ لأبين لك أنني بعمر يصلح لأكون أباك.

ـ هذا... لا يعني.. شيئاً.

ـ حسناً بل يعني. ولكن لا تظني أنني كبير جداً كما أعتقد أنك قدّرت.. على أي حال، هذا يعني أن المرء حين يبلغ عمري، يكون قد تعلم شيئاً من السيطرة على النفس.. إذن، إن كنت تخشين من أن أتحرش بك، فانسي خشيتك هذه.. استرخي يا طفلتي.

وعبث بشعرها ملاطفاً. فاستكانت.. ولكنها سرعان ما شعرت به يعيدها إلى الثانية عشرة من عمرها فتوترت.. نظرت إلى فستانها ثم طفقت تمرر إصبعها على الشق الممزق ولم تلبث أن تنهدت بلا وعي، فسألها:

ـ لماذا هذه التنهيدة ترايسي؟ أعدك بأننا سنخرج من هنا..

امسكت بيده عندما تحرك المصعد:

ـ اوه.. ليس الأمر هكذا. كنت أفكر في فستاني الذي أحبه كثيراً.. إنه أفضل فساتيني.

كانت تتكلم بسرعة لتبعد تفكيرها عما يفعله المصعد. فقد توقف مجدداً وبقيت الابواب موصدة.. وأكملت:

ـ ارتديته... حسناً.. لأؤثر في الشخص الذي كنت في طريقي إلى مقابلته. وها أنا الآن مضطرة للعودة إلى المنزل لـ... لاستجمع شجاعتي مجدداً.

انهت حديثها متنهدة، فقال:

ـ لم لا تشرحين لي ما حدث؟

فكرت قليلاً.. ثم:

ـ أنا مترددة بعض الشيء.. لا.. سيظن أنني خرقاء.. أعني..

لسوء حظي أنني غالباً ما أزج نفسي في كافة أنواع المتاعب.. فإن رآني أصل إليه على هذه الحال، ممزقة الثوب بشعة المظهر... لا...

سألها رفيقها، وشفتاه ترتجفان تسلية:

ـ أهي زيارة عمل.. تلك التي كنت تنوين القيام بها؟

ـ ليس بالضبط، إنها امر شخصي ايضاً. المشكلة، انه رجل مشغول جداً. أعني أنني اتصلت عدة مرات ولكنهم رفضوا حتى تمرير المخابرة له.. ولا أظنهم كانوا قادرين على هذا.. لكن.. على أي حال، كان فعلهم ذاك السبب في قراري القاضي أن أمسك الثور من قرنيه اليوم...

ـ أمرّ أحياناً بظروف كهذه فأتمنى لو أني لم أغادر فراشي.

ـ صحيح؟

ضحك: ألا يصيب هذا جميع الناس؟ أما بشأن فستانك فهل يمكن إصلاحه؟ لست خبيراً بذلك.

ردت بارتياب:

ـ لا أظن ان بالإمكان إصلاحه دون أن يظهر أثر التمزيق. ولكن، لا بأس في هذا، فكما كان يقول والدي.. سيعوضني الله.. ويجب أن أثق بهذا.. ما.. ما الذي يحدث الآن؟

أمسكت يده بقوة، فقال ببطء:

ـ أظن أنهم على وشك إنقاذنا.

نظرت إليه ترايسي فرأته يمعن فيها النظر بفضول.

ـ ما الأمر؟

ردّ مقطباً: «لا أدري».

حرر يده من بين يديها بلطف ومد يده إلى جيبه ليخرج ورقتين نقديتين من فئة الخمسين دولار.

ـ اعتبريني اداة للعناية الإلهية ترايسي.

ودس المال في يدها.

حدقت ترايسي إلى المال ثم إليه والصدمة بادية في عينيها.

ـ لا أستطيع! لم أكن اعني.. هل ظننت.. أوه يا الله...! لا..

تضرج وجهها حرجاً، ولكنه قاطعها بحزم:

- بلى.. أترين.. أكره أن أفكر فيك فأتصورك بدون فستان جميل. خاصة وأنه سيمنحك الثقة بالنفس عندما تجرين تلك المقابلة الغامضة.

انفتحت أبواب المصعد، ولكن الرجل لم يلاحظها.. ثم أطلت من عينيه نظرة خبيثة شيطانية قبل أن يقبل رأسها بلطف وتابع:

- أكره أن اعترف بما سأقوله الآن. فأنا أشك في أن رجلاً ما في هذا الكون قادر على أن يشعر تجاهك بالأبوة فأنت أجمل من هذا بكثير.

تطلعت ترايسي إليه مصدومة مقطوعة الانفاس.. ثم أدارت رأسها، فرأت أنه ليس الميكانيكي وحده ينظر إليهما، بل جماعة مؤلفة من حوالي عشرة أشخاص يتطلعون إلى المصعد، وتعابير وجوهم مختلفة منها الدهشة ومنها الذهول، فهمست تحاول اعادة المال إليه:

- أوه!

ولكنه لم يقبل المال، بل رفعها عن الارض يربت رأسها من جديد.. ثم اختفى متمتماً:

- آسف لأنني سأسرع في تركك هكذا ولكنني تأخرت..

- ولكن.. لا أستطيع قبول هذه.

رفعت يدها بالمال ولكنه في هذا الوقت بالذات اختفى رفيقها السابق خلف باب الردهة.. ثم تركز اهتمامها على المراقبين المهتمين بما يرونه اهتماماً كبيراً. ونظرت إلى تنورتها الممزقة ومنها إلى الوجوه ثانية، فرأت بعض الغمزات والابتسامات العارفة، فقالت بصوت متحشرج:

- ليس الأمر كما تظنون.. إنها.. اوه يا إلهي!

وهرعت هي أيضاً عبر الردهة نحو الباب، تفكر في الصياح: اتركوني أخرج من هنا فقط، كيف استطاع أن يفعل بي ذلك.

* * *

بعد ساعة على هذه الحادثة عادت ترايسي إلى بيت السيد نيوتن وراحت تقص ما حدث على السيدة نيوتن التي أصغت بدهشة. كان السيد

نيوتن صديق والد ترايسي وهذا ما جعله يدعو ترايسي للاقامة عندهم.

قالت السيدة نيوتن بعد أن انهت ترايسي كلامها:

- حسناً.. لا أرى أين المشكلة، فلله امور غامضة في تنفيذ مشيئته ترايسي..

- أعرف هذا.

- إذن ما المشكلة؟ يمكنك تسديد المبلغ على دفعات حين تحصلين على عمل.

- لكنني لا أعرف اسمه!

- ألم تفكري في أن تسأليه؟

- لا.

تفرست السيدة نيوتن فيها لحظات قبل القول:

- يا عزيزتي.. أرى من خلال ما ذكرته أنه تصرف تصرف السيد المهذب.

ردت ترايسي ببطء، تفكر في العينين السوداوين الناعستين.

- أجل.. نعم كان مهذباً، ولكن بعدما ترك المئة دولار في يدي أحسست بأن الأمر غريب حقاً.

دخل السيد نيوتن ليسألها:

- وما هو الغريب؟ منزلك ترايسي؟ هل ذهبت لرؤيته؟

- لا.. بل علقت في مصعد، ومزّقت أفضل فساتيني، وقابلت رجلاً أعطاني المال لأشتري فستاناً جديداً، ولمعلوماتك لم يسبق أن شعرت قط بمثل هذا الاذلال.. لقد قبلني أمام الجميع فظن الجمع المحتشد أمام الباب أننا كنا نتبادل الغرام في المصعد!

تبادل السيد نيوتن وزوجته النظرات قبل أن تباشر السيدة نيوتن بالقول:

- ترايسي.. عزيزتي، لا تكدّري نفسك من أجل قبلة عابرة. ربما شعر بأن في هذا الموقف ما هو فكاهي، على الأقل لم يقبلك... اعني.. كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك لولا وجود أحد معكِ، بطريقة ما.

أما المال فبإمكانك التبرع به للكنيسة. وسنكون، أنا وثيو، سعيدين في مساعدتك على شراء فستان جديد.. أليس كذلك ثيو؟

هز السيد نيوتن رأسه بحماس ونظرة ارتباك شبه مضحكة على وجهه.. فرفعت ترايسي رأسها والدموع تترقرق في عينيها فجأة.

- لا.. شكراً لكما.. أنتما في غاية اللطف. إنما أنا بحاجة إلى هذا المال حاجة الكنيسة إليه، ولهذا سأستخدمه.

ابتسمت من بين دموعها ووقفت:

- على فكرة.. أنا من سيطبخ العشاء الليلة!

احتجت السيدة نيوتن: «عزيزتي أنت ضيفة».

لكن السيد نيوتن وضع يده على يد زوجته:

- افعلي ما شئت ترايسي.. فلطالما وجدت هذا مساعداً...

قاطعته زوجته بحنق:

- ولكنك لم تطه عشاءً قط، ثيو.

ابتسم ثيودور نيوتن لزوجته الساخطة:

- هذا لأنك لم تطلقي يدي يوماً في مطبخك.. وكنت أعني أن العمل يساعد المرء على احزانه.. اسمعي، قبل أن أموت فضولاً.. أرجو أن تخبريني ماذا حصل بعد ظهر اليوم؟

ردت الزوجة ضاحكة:

- أوه عزيزي.. سأحاول. لكنني مشوشة الأفكار قليلاً.

* * *

نظرت ترايسي إلى نفسها في مرآة غرفة القياس الصغيرة تقول لنفسها: هكذا أفضل!

استدارت جانباً، تتأمل بإعجاب انسدال الثوب الوردي على قدها الرشيق كما لاحظت أن لونه يضفي رونقاً على بشرتها الحريرية الشاحبة وعلى عينيها الرماديتين وعلى الشعر الأسود البراق. كان القماش رقيقاً ناعماً حتى يكاد يشبه الحرير كما أن موضته تعود إلى آخر صيحة في عالم

الأناقة الهادئة.. كان القسم العلوي مثبتاً له ياقة تشبه ربطة العنق، أما أكمامه فتبلغ المرفق وتضيق عنده في رباط ضيق وأما التنورة فكانت ضيقة محتشمة.. تمتمت تبتسم لنفسها:

- إنه أنق من الآخر. وربما سيصبح عزيزاً أكثر.

نظرت إلى السعر المدون على البطاقة المعلقة فيه. حسناً إنه فستان أستطيع ارتداءه في أي مكان، وإن كنت محظوظة استطعت شراء حذاء يناسبه ثم، حين ينظر المرء إلى ما حوله، يجد أن التسعة والتسعين دولاراً لا تشتري له شيئاً هذه الأيام! خاصة هنا في سيرفرز باراديز! ومن المهم أن تعطي الانطباع الجيد منذ المقابلة الأولى.

ضحكت على التعبير الذي ظهر على وجهها في المرآة، وقالت لصورتها:

- اعترفي.. ترايسي. ما دام في جيبك مئة دولار فلن تستطيعي مقاومة هذا الفستان.

تغيرت ملامح وجهها، ثم راحت تفكر بحبها القديم للملابس الجميلة، ذاك الحب الذي لم تستطع قط تحقيقه. ربما يجب أن اضبط نفسي، ألم يقل لي أبي دائماً، يجب ألا تحكمي على الإنسان من خلال ثيابه؟.. ثم لقد كان دائماً صاحب حضور، وما من أحد نظر مرتين إلى ما يرتدي.. ولكن إذا كان الأمر يتعلق باستثمار لمستقبلي...

مررت أناملها على طرف ربطة العنق، ووجدت أفكارها تتجه فجأة في اتجاه مختلف في اتجاه تينك العينين السوداوين وتساءلت عما إذا كانتا ستبديان الإعجاب بالفستان. احمّر وجهها وهي تفكر في ما حصل في اليوم السابق.. ثم أومض في عينيها ذاك السخط الذي شعرت به، بعدما تركها وفي يدها المئة دولار، وفي اليد الأخرى فستانها الممزق.

- سأشتري الفستان...

خلعته بحذر، ثم مدت يدها إلى تنورتها وبلوزتها ولكنها قفزت هلعاً عند دخول البائعة إلى الغرفة الصغيرة:

- ما بك عزيزتي.. ألم يعجبك؟

استعادت ترايسي شجاعتها:

- بل أعجبني وسأشتريه.

- هذا ما ظننته.. إنه يناسب شبابك ولكنه في الوقت ذاته أنيق يتناغم تناغماً تاماً مع جسدك النحيل، وثناياك الرائعة.

توقفت ترايسي عن تزرير بلوزتها:

- اتظنين هذا حقاً؟

ضحكت البائعة، وأمسكت بمعصم ترايسي ترفعه:

- بل أعرف هذا.. أراه في كاحليك ومعصميك، وفي هاتين الساقين الرائعتين. آه استطيع معرفة مقاييس الجمال ولو على بعد أميال.. أتشترينه لمناسبة خاصة؟

- بل آمل أن يكون لمناسبات خاصة عديدة.

* * *

وقفت ترايسي بعد ظهر ذلك اليوم في الردهة التي كانت الشاهدة على إذلالها في اليوم السابق، تفكر: لن أسمح لنفسي الآن أن أكون جبانة... ولكنني أتمنى على الله ألا يتعرف عليّ احد... وسأستخدم المصعد وصولاً إلى الطابق السابع.

أطلقت دعاء قصيراً ثم دلفت إلى المصعد. لم تستطع منع نفسها من الارتجاف، ولكن المصعد تحرّك بطريقة طبيعية وتوقف في الطابق السابع، فخرجت إلى الردهة وراحت تنظر إلى أين تتجه ووجدت بغيتها على شكل لوحة مدهونة على احد الابواب تقول ببساطة: غريسبن كاليهار - تجارة ماشية وأملاك.

سحبت نفساً عميقاً ثم ولجت الباب.

- هل لي بمساعدتك؟

سألتها موظفة استقبال بدهشة. تطلعت ترايسي إلى الغرفة الجميلة الانيقة، ثم إلى الموظفة الجميلة.

- أريد رؤية السيد كاليهار.. اسمي...

قاطعتها موظفة الاستقبال بحزم:

- أنا آسفة جداً.. إن لم تكوني على موعد معه، فهذا مستحيل.

وراحت تنقر على مكتبها بالقلم فعلمت ترايسي أن هذه المرأة تكبح نفاذ صبرها، فرفعت رأسها قليلاً:

- هذا ما قلته دائماً على الهاتف، فلم تنفكي تقولين «اتصلي بعد بضعة أيام» ولكن مرت أسابيع الآن! ولا أظنه على هذه الدرجة من الانشغال، وأعرف أنه سيتفهم موقفي حين يراني.

رفعت الموظفة عينيها الزرقاوين إلى السماء.. وتمتمت، وكأنها تعد إلى العشرة في نفسها:

- أخشى أنه فعلاً مشغول إلى هذه الدرجة. عنده معرض سنوي بعد بضعة أيام.. ومن سوء الحظ أن نظام عملنا اضطرب قليلاً عن غير توقع... ولهذا ترك تعليمات صارمة، تفيد بألا أسمح لأي شيء له طابع شخصي...

قاطعتها ترايسي:

- ليس ما أريده شخصياً، أعني، إنه شخصي بطريقة ما.. لكن، ليس في الواقع... إن كنت تعرفين ما اعني.. ما اعنيه... أنا لم اقابله قط.

- إذن من الأفضل أن تتركي مقابلته إلى ما بعد... إلا إذا كنت قادمة من وكالة التوظيف؟

كان سؤال موظفة الاستقبال مرفقاً بوميض أمل في عينيها:

- لا... لكن...

وصمتت حين انفتح باب داخلي، ثم توقف الدم في عروقها عندما خرج رجل طويل، لم يع للوهلة الأولى وجودها:

- ايلينا.. أحتاج إلى بقية الاوراق بسرعة... هل أنهيت طبعها... يا الله!

رفع رأسه واستقرت عيناه على كومة الاوراق التي كانت تعبث بها الفتاة منذ قليل ثم نظر إلى ترايسي، فيما كانت ايلينا ترد متوترة:

- ليس بعد سيد غاليهار.. هذه السيدة تصّر على رؤيتك وقد قلت

لها...

خرجت ترايسي من جمودها وقالت بصوت دهش وقد وجدت نفسها مرة أخرى تحدق إلى العينين الناعستين السوداوين.

ـ أنت!

ـ ترايسي... تقابلنا مجدداً.

اطبقت ترايسي فمها ثم فتحته بصوت ينبىء عن عجب:

ـ لست أفهم.. هل أنت كريسبن غاليهار.. هل لك أب؟ اعني...

ـ كان لي أب.. اسمه ادوارد.. على فكرة إن كان هذا هو الفستان الجديد فاعرفي أنه يعجبني كثيراً.

أغمضت ترايسي عينيها وهي تشعر بالخزي والعار. كيف يحدث هذا لي؟ فتحت عينيها بحدة حين تمتمت الفتاة:

ـ أنا آسفة.. لم أعرف انك تعرف السيدة، سيد غاليهار.. قالت...

قاطعتها ترايسي بسرعة: «أنا».

لكن كريس كاليهار قاطعها:

ـ أردت رؤيتي ترايسي بخصوص ما حدث بالأمس؟

ـ آه، لا.. أنا.. حسناً.. لقد قال أبي إنك صديق قديم له وقد طلب مني أن أذكرك بهذا قبل وفاته. قال: حينما تلتقين بكريس غاليهار ترايسي، فذكريه بالجياد التي روضناها في «باركو...».

استولى جمود مفاجىء على كريس غاليهار، وقست عيناه وهو يحدق إلى وجه ترايسي.. ثم قال بهدوء:

ـ بالطبع.. عرفت أن هناك شيئاً ما حولك، ولكنني لم استطع معرفته.. اما الآن، فلا أفهم كيف لم... أنت تشبهينه جداً.. ولا يمكن إلا أن تكوني ترايسي تشسترتون؟

مسحت دمعة:

ـ أجل.. أنا آسفة.. خلتني تجاوزت حزني.

حاولت الابتسام قبل أن تردف:

ـ كان يكلمني عنك أحياناً، وكان واثقاً أنني سأقابلك يوماً ما،

ولكنني لسبب ما لم ألتق بك. وكنت في المدرسة عندما رآك في المرة الأخيرة.

ـ كنت مسافراً حين مات. ولم أسمع بموته الا منذ شهر تقريباً. وقد ظننت أن الوقت متأخر على تقديم التعازي وهذا ما يثبت أنني لا أفكر جيداً.

ردت بارتباك:

ـ آه. كنت على حق.. فعلاً.. لن أعطلك وقتاً طويلاً..

استدارت نحو الباب، فصاح:

ـ انتظري ترايسي.. سأرافقك. فمن المستحيل أن نتحدث هنا بدون أن يقاطعنا أحد.

التفت إلى ايلينا الفاغرة الفم بذهول:

ـ ان احتاجني أحد فقولي له إنني راجع بعد ساعة... لا تقلقي.. سنجتاز المحنة بطريقة ما.. الله سيكون في عوننا!

سألت ترايسي بارتباك: «ولكن إلى أين؟ لماذا»؟

ـ إلى مكان هادىء.. هل صعدت بالمصعد؟

ـ أجل.. لكن...

رافقها وابتسم لها:

ـ هذه شجاعة منك... سنذهب إلى مكان ما لنستعيد الماضي.. يبدو أن أمامي الكثير أسأل عنه. كان والدك.. أفضل صديق.

ولم تعد ترايسي مترددة.

* * *

قال كريس غاليهار لترايسي فيما بعد:

ـ قصة حياتك طويلة ترايسي. ألم تفكري قط في أنها حياة غريبة بالنسبة لفتاة صغيرة أمضت العمر في سفر دائم مع والدها.

ردت بصراحة:

ـ اوه.. لا! أنا لم أندم إلا على الأوقات التي كنت فيها بعيدة عنه. آه

ليتني كنت مثله.

ابتسم: «ولماذا تشكين في أنك مثله؟».

ـ أولاً، لأنه لا يبدو أنني ورثت عنه عدم اكتراثه بالامور الدنيوية المادية.. كان الأمر أسهل علي حين كان حياً، ولكنه مات منذ ثلاثة أشهر فقط، وهذا الصباح تركت نفسي على هواها فدفعت تسعة وتسعين دولاراً ثمناً لهذا الفستان.. اوه!

أصبحت بشرتها وردية عندما انفجر ضاحكاً وودت يائسة لو يخفي الضوء الخافت في المطعم الصغير وجنتيها المتوردتين. ثم وجدت أنها مضطرة للابتسام، ولو على مضض:

ـ كنت أعرف أنه ما كان علي استخدام ذلك المال.. ولو عرفت أنني سألتقي بك ثانية، لما استخدمته... صدقني. فأنت بالأمس احرجتني حرجاً عظيماً.

ابتسم ثانية:

ـ آسف على ذلك، فأنا لم استطع مقاومتك. ولكنك الآن بتّ تعرفين هويتي وأرجو أن أكون عند حسن ظنك بي.

ـ طبعاً.. فأي صديق لوالدي... هو...

ـ فوق الشبهات! حدثيني عن دراستك.. أنت لا تدركين أنك تبدين حزينة كلما ذكرت المدرسة.

ـ لا عجب في هذا.. نظراً إلى كراهيتي للأوقات التي أمضيتها فيها. ولو كان الخيار بيدي لما ذهبت إليها قط، فلم أجد ضرورة فيها. فقد تعلمت من مدرسة الطبيعة، ومما علمني إياه أبي أكثر مما تتعلمه الفتيات طوال حياتهن في المدارس.

ـ ولماذا سمحت لنفسك بالذهاب إلى هناك إذن؟

تنهدت ترايسي:

ـ كان من سوء حظي أن بعض السيدات أقنعن والدي عن طيب نية بأن أدخل إلى مدرسة لأن لا أم ترعاني، وأنت تعرف أن أبي كان أكثر من طبيب بالنسبة للناس الذين كان يُقدم لهم يد المساعدة. وقد أقدمت هؤلاء

النسوة اللاتي كن أكثر من شاكرات لأبي على وضع خطة يستطعن من خلالها رد الجميل له لما يفعله لهن. وكانت الخطة أن أرسل إلى مدرسة داخلية وقد أقنعنه بأنني هناك سأتعلم كيف أصبح «سيدة» وسيكون لي أصدقاء وما إلى ذلك.. وكان أن وقع تحت تأثيرهن.

قال كريس بإشفاق:

ـ مسكينة ترايسي. أكان تعلُّم أن تصبحي سيدة سيئاً إلى هذا الحد؟

ـ حسناً... في الواقع، كان سبب ذلك غلطتي، ليس لأنني لم أكن أرغب في الذهاب فقط، لكن... حسناً.. إن الانتقال من بيئة إلى أخرى أمر يبعث المرء على التوتر، وحينما كنت أشعر بالتوتر كان يسوء حالي فأصبح ذات لسان سليط. أتفهم ما أعني؟

هز رأسه: «تابعي».

ـ وكان السبب الثاني اعتيادي على تلقي العلوم بطريقة حرة طليقة وهذا ما كنت أؤمن به فعندما قلت لهم في المدرسة ان أبي خريج جامعة اوكسفورد، وهو مؤهل أكثر منهم لتعليمي، لم يعجبهم هذا، لكنهم اضطروا لابتلاع كبريائهم حين نلت جائزة التاريخ في الفصل الدراسي الأول.

ضحك بصمت.

ـ لا بد انهم تساءلوا عما أصابهم... هل أقمت صداقات؟

ـ أجل.. ولكن الأمر لم يكن سهلاً. كنت مضطرة دوماً للدفاع، هذه خطيئة كبيرة، ولكنني كنت أحياناً أجد صعوبة في القتال، فأعمد عوضاً عن ذلك إلى اطلاق رأيي صريحاً بنظامهم وماديتهم الكاملة وبشخصياتهم المحافظة المتعجرفة. وكان أن اكتسبت لقباً كانت الفتيات يناديننني به بهزء: «صاحبة السمو».

ـ صاحبة السمو؟ يا للمسكينة.

ـ وباسم امي «باربرة»، وهذا ما أضافه أبي إلى اسمي.

ـ اتذكرين أمك ترايسي؟ التقيت بها مرة واحدة.. قبل أن تولدي.

ـ أذكرها إنما بشكل ضبابي.. فلم أكن قد بلغت السادسة حين

ماتت.. أتعلم أن أبي لم يستطع تجاوز محنة موتها. صحيح أنه لم ينهر أو ييأس طوال الوقت، ولكنه في بعض الأحيان كان يبدو... وحيداً مستوحشاً، وكنت أعرف أنه مشتاق إليها.. حين مات فكرت في أنهما سيجتمعان ثانية في مكان ما أخيراً..

بعد دقائق صمت، وبعد أن استعادت رباطة جأشها قال:

ـ كان رجلاً عظيماً.. والدك. ألم يخبرك يوماً ماذا فعل لأجلي؟

ـ لا.. لم يحدثني إلا عن صداقتكما الحميمة.

ـ لم نكن صديقين في لقائنا الأول فقد كنت أنا يومذاك شاباً فجاً قليل الخبرة، منكباً على طريق جهنمي مدمر، كان يقودني أكثر من مرة إلى سجن «باركالدين» واصلاحيات اخرى في الغرب... وأرسل مرة ليعالجني.. اظنني كنت في الخامسة عشرة وكنت يومذاك أتعاطى المخدرات، فأنا واحد من عشرة من الأطفال العاطل آباؤهم عن العمل. على أي حال، أرسلوه ليكلمني وليحاول معالجتي، ولكنني رفضت أن أقابل طبيباً يحاول إبعادي عما اعتدت عليه. وحاول معالجتي ولكنني قمت بعمل استفزازي ضد أملاكه الخاصة وكان ما فعلته فظاً وغير مهذب، وحين افكر فيه الآن لا اصدقه، في ذلك الوقت ظننت أن لا مجال أمامه يثبت أنني الفاعل، مع أنني اهتممت بأن يعرف ولكنه لم يحاول إثبات هذا. بل قام يوماً بحشري في اسطبل مهجور مغبر، وضربني حتى كاد يزهق أنفاسي وهذا ما أثار دهشتي الشديدة! ثم نظفني، وعرض عليّ أن يعلمني كل ما يعرفه عن الجياد. وكان يعرف عنها أكثر مما ظننت، وهذا كان سبب وصولي إلى ما أنا عليه الآن. وبقيت معه ثلاث سنوات، لم اتعلم خلالها عن الجياد فحسب، بل تعلمت حب التعلم، وكبرت في كل الاتجاهات... جعلني أرى ما وراء عالمي المحدود القاسي الضيّق.

ـ أظنه كان مولعاً بك جداً.. اوه، هذا لا يصف الأمر جيداً.. لم يكن لدي فكرة كيف حدث هذا، كنت أظن أنكما صديقين فقط.

نظر كريسبن غاليهار إلى شرابه، ثم قال ببطء:

ـ لقد آمنت بأن الفضل الأول والأخير في جميع انجازاتي يعود إليه

ولكن ما كان أعظم من كل انجازاتي حصولي على صداقته. وكانت صداقة استمرت رغم عدم التقائنا أكثر من عشر مرات.. في السنوات الماضية... كم عمرك؟ ثمانية عشرة؟ اذن في السنوات الثمانية عشرة الماضية.

تهلل وجه ترايسي بالبهجة:

ـ كدت أذهب الآن دون أن أقول لك من أنا.. لكنني سعيدة الآن أنني لم...

صمتت لعبوس الفضول على وجهه.

ـ وهل جئت إلى هنا لتقولي لي هذا فقط؟ أم انك تعيشين هنا الآن؟

ـ أنا.. أنا أقيم مع أصدقاء أبي.

ـ وحتام؟

ـ لست واثقة.. ربما حتى أعود.

ـ إلى أين؟

ـ أوه.. لست واثقة كذلك.

ـ ألديك وظيفة؟

ـ لا.. لا.. ليس بعد.. لكن لدي عروض كثيرة...

ـ أي نوع من الوظائف؟

ـ يتعلق معظمها بأن أكون معلمة خاصة.

نفرس فيها مفكراً:

ـ أهذا ما ترغبين فيه؟ أن تكوني معلمة لأولاد شخص آخر؟

نظرت ترايسي إلى يديها تتساءل لماذا تجد صعوبة في الكذب.. ولكنها طبعاً ستجد صعوبة في الكذب.. عادة لا تجد في هذا مشكلة في حياتها الشابة، لكنها وجدت الآن صعوبة في أن تخبر هذا الرجل أنها إنما سعت إليه بناء لتوصية أبيها. صحيح انها لم تشك قط في كلمة والدها، لكنها لم تستطع منع نفسها من الاحساس بأن كريسبن غاليهار، كان خياراً غريباً. فكيف اختاره ليساعدها في الوقوف على قدميها.. ولكنها تذكرت شيئاً ذكره لها يوماً.. قال لها، وشفتاه جافتان، قبل نهايته.

ـ . . . أنت لا ترغبين في دفن نفسك في هذه البراري المقفرة ترايسي.

ردت بعناد: «لكنه مكان مناسب لك».

ـ هذا لأنني كنت ذا تجربة كبيرة قبل الانخراط في العيش هنا. عليك أن تجربي وبعد التجربة انظري إن كنت ما تزالين راغبة في العودة فعودي.

ـ لكنهم سيظنونني ساذجة غريبة الاطوار هناك. . .

ـ لا. . ليس الناس الحقيقيون. . لن يظنوا بك هذا. اذهبي وقابلي كريس غالبهار، سيساعدك على ايجاد وظيفة، كما سيعينك على أمور أخرى. . إنه انسان حقيقي، أضف إلى هذا انه مدين لي. . .

حسناً. . . هذا ما فعلته، متخلية عن العروض اللطيفة التي عرضت عليها وسافرت إلى هنا وكلها عزم على إيجاد وظيفة، ولكن عوضاً عن إيجاد الصورة الابوية، وجدت شيئاً آخر، شيئاً لم تفهمه. . شيئاً يجعل من المستحيل أن. . . أن. . ماذا؟

رفعت رأسها فجأة تنظر إلى العينين السوداوين اللتين سأل صاحبهما:

ـ وماذا علمتك مدرستك أيضاً؟

ـ الطباعة. . والقواعد الاساسية للسكرتاريا، والخياطة والطهو وطريقة السير السوي واللباس الأنيق وتنظيم حفلات العشاء، وفن الحديث. . كل هذه الأنواع. .

ضحك وتمتم:

ـ ربما هذه أمور مفيدة أكثر مما تظنين ترايسي. . مع أنها غير ضرورية إن دفنت نفسك في السهول وأنت تربين أولاد شخص آخر. اخبريني، ألم تفكري في الاستفادة من التعليم، خصوصاً الجانب التجاري منه.

عبست لأنها تذكرت أنها قدمت طلبات في أماكن عديدة أثناء إقامتها هنا. . وأجابت:

ـ بلى. . فعلت. . لكن نقص الخبرة كان أكبر عائق لي. وكيف للمرء أن يحصل على الخبرة وهو ما يزال في الثامنة عشرة من عمره ولم يترك المدرسة إلا منذ أمد قصير؟

ـ تترك معظم الفتيات المدرسة في الخامسة أو السادسة عشرة، وحتى يصبحن في الثامنة عشرة، يكن قد سبقن فتاة مثلك. . . على أي حال، أنا واثق أن لديك موهبة جيدة. . إذا كنت تشبهين أباك.

ـ ماذا تعني؟

ـ أتعرفين شيئاً عن الجياد ترايسي؟

ـ الكثير. . . لقد. . . علمني الكثير عن الجياد. . وأنا أحبها. . لماذا تسأل؟

صمت كريس فترة ثم قال بسخرية:

ـ حسناً. . لن اسخر من تدابير القدر ثانية. . أتذكرين أنك لاقيت صعوبة في الوصول إلي، كما لاحظت الفوضى العامرة في المكتب؟

ـ أجل.

ـ السبب في هذا كله أنني خسرت فرداً مهماً من الموظفين منذ فترة قصيرة. كنت اسميها «فتاة الجمعة» وكانت في الخمسينات من عمرها، لكنها معتادة على القيام بالكثير مما تفعله ايلينا الآن، لكن في المنزل. . أترين. . لدي ذلك المكان في «نيرانغ» حيث يجري البيع الحقيقي. . وهي تشرف على إدارة المنزل برمته مع أنها لا تعيش فيه. . أما أنت فيمكنك العيش فيه.

ـ أنا. . . أتعني أنك تعرض علي الوظيفة؟

ـ أجل. . كنت قد كلفت وكالة توظيف بالتفتيش عن موظفة، ولم أفلح في ذلك حتى الآن. . أعني أنني قادر إن اضطرني الأمر على الحصول على طابعة لا فكرة لديها عما تطبع لطبع كاتالوج عن الجياد الجديدة مثلاً، أو الحصول على فارسات استعراض عاطلات عن العمل لا يعرفن الطباعة، ويعرفن الجياد بالمقلوب. . . أما أنت فلديك المهارتان إضافة إلى مهارة أخرى هي مقدرتك على المساعدة حين أستقبل ضيوفاً فإذا اشتغلت عندي تمكنت من استخدام مواهبك كلها.

وابتسم. . فقالت ترايسي بوهن بعدما استردت صوتها:

ـ أنا. . أعني. . أنني مذهولة.

ـ صحيح؟ أتعيدين التفكير؟ لا أستطيع نسيان ما قلته لي في المصعد.

سألت بصوت متوتر: ما... ماذا؟

مد ساقيه المديدتين، والتمعت عيناه بخبث قبل أن يقول بوقار:

ـ قلت شيئاً عن.. انك تحاولين رؤية شخص، عرفنا الآن انه أنا.. ولكن ليس على أساس عملي محض.. ايعني هذا أن السبب شخصي وغير شخصي، أم نصف نصف؟

عضت شفتها ولازمت الصمت.. فتمتم:

ـ قلت شيئاً آخر... عن ارتداء أفضل ثيابك للتأثير.. فيّ على ما أظن؟ أكنت تريدين أن أساعدك في الحصول على عمل ترايسي، وبسبب ما حدث بالأمس غيرت رأيك؟

ردت ترايسي أخيراً، وهي تكبح اندفاعاً لقضم اظافرها، وهذه عادة ظنت أنها شفيت منها.

ـ أوه.. أجل ولكن، لم أتوقع أن أعمل عندك.

ـ ولماذا لا؟ ما دامت عندي وظيفة شاغرة. أؤكد لك ترايسي أن ما حدث في المصعد ليست الطريقة التي أنفذ بها اعمالي. أو الطريقة التي أحلم بها لمعاملة ابنة براين تشسترتون. ولكنني لم أكن أعرف، في الواقع..

لمع الضحك في عينيه قبل أن يردف:

ـ أنا لا أقوم بمثل هذه الأمور أبداً. ولا بد أن لما فعلته علاقة بمسألة احتجازنا في المصعد... ربما ينتج ذلك اندفاعاً متهوراً في الناس!

فكرت ترايسي بردة فعلها المذعورة، واضطرت أن تضحك:

ـ أجل..

ثم نظرت إليه بطريقة جادة:

ـ أقبل شرط ألا يكون العمل بناء على الإحسان.

رد ضاحكاً:

ـ اسألي ابلينا! في الواقع إن احببت قضاء بضعة أيام في المكتب معها أولاً، لتفكري في العمل قبل الانتقال إلى عملك الجديد فقد يعطيك ذلك فكرة واضحة عن كيفية تسيير الأمور عندنا...

* * *

Aml
www.liilas.com

٢ ـ طفلة تريد أن تكبر

قالت ترايسي للسيد نيوتن ذلك النهار:

ـ حسناً.. إنه يعيش في «نيرانغ» حيث يملك مجمّعاً كبيراً ومكاناً يبيع فيه جياده الاصيلة واصطبلات لإيواء الجياد القادمة للعرض والبيع، وحلبة تدريب خاصة، ومؤسسة تدريب كذلك، وقد استطعت أن أفهم أن المكان في الواقع اشبه بمجموعة مشتركة تؤلف «مجتمعاً» صغيراً. لديه منزل خاص ومجموعة أكواخ صيفية للمدربين والموظفين الآخرين.

التفتت السيدة نيوتن إلى زوجها.

ـ بالطبع! وأنت تعرف المكان عزيزي.. وأستطيع القول إنه مكان مؤثر فهو في قلب الريف، ولكنه لا يبعد سوى نصف ساعة... هيا.. تابعي ترايسي.

ـ حسناً.. كان عنده من يقوم بالاعمال المكتبية التي تشمل الجياد المارة في المكان.. وكانت تنظم له الإدارة ولكنها اضطرت لترك عملها فجأة، ويريد من يحل مكانها. إنه يطلب شخصاً يعرف كيف يتعامل مع الجياد، ويعرف كيف يستقبل الناس من المشترين الجنوبيين، والمختصين بالسباقات، وسيكون جزءاً من العمل المساعدة على ترتيب المعارض والسباقات. وبإمكاني العيش هناك، مع أن الموظفة السابقة لم تكن تعيش هناك، بل تعيش في قرية نيرانغ نفسها.

ساد صمت قصير سأل تيو نيوتن بعده:

ـ أهو متزوج؟

ـ لم أسأله.. ولكنني لا أعتقده متزوجاً ولو كان لذكر لي الأمر.. سيكون لي كوخي الخاص إلى جانب كوخ مدرب خيوله الخاص،

المتزوج الذي عنده خمسة اطفال، ويقول السيد غاليهار إن لديه مدبرة منزل.. فما رأيكما؟

درس السيد نيوتن وجهها المترقب، وفكر كم سيكون سعيداً بعدم وجود ابنة في الثامنة عشرة في منزله. خاصة من تبدو نضرة بريئة مثل ترايسي، ثم فكر في أمر يقلقه: لو أن كريسبن غاليهار رجل متزوج لوافق حالاً مع أن مثل هذه الموافقة قد لا تعني شيئاً في مثل هذه الأيام.. فماذا احاول إقناع نفسي؟ انا لا أعرف شيئاً عن الرجل، لكنني اعرف نوع المجتمع الذي يعيش فيه.. المجتمع الثري والطبقة المتحذلقة... خرج من تأملاته فجأة فرأى ترايسي تنظر إليه، وأحس أنها كانت تقرأ أفكاره.. وهذا ما تأكد منه حين قالت بشيء من التردد.

ـ كان يعتبره والدي صديقاً عظيماً.. لذا لا تقلق بشأن أخلاقه...

سألها بهدوء:

ـ أتريدين هذه الوظيفة ترايسي؟

ـ أظن هذا.. أود أن أثبت أنني قادرة على القيام بها.. في الواقع ستكون أشبه بحلم تحقق.

ـ لو قلت لك إن هذا عالم يختلف عن الذي اعتدته فهل ستعتقدين أنني رجل متأخر؟

ـ لا.. بل سأعتقد أنك محق، ولطيف، ورائع، وأنك تقلق عليّ، مع انني اعتقد أن علي القيام بالاندفاع يوماً.

ـ إذن، لك ما تريدين يا بنيتي شرط أن تعتبريني وزوجتي عائلتك فتعاملينا على هذا الاساس.

بعد دقائق طويلة من مغادرة ترايسي التي راحت تمسح بعض دموع الفرح، نظرت السيدة نيوتن إلى زوجها فقالت له:

ـ ستذهب لتراه على ما أعتقد.. لكن هذا قد لا يعجبها..

ـ لا داعي إلى أن تعرف.

ـ أتظن من الحكمة التدخل ثيو؟ أظنها تناضل بقوة لتكون ناجحة ومستقلة.

ـ لن أتدخل عزيزتي . . سأزوره فقط لأقدم له نفسي وليعلم أن ترايسي ليست وحيدة في هذه الدنيا ولا أظن أن في ذلك ضيراً. قد يكون صديقاً عظيماً لأبيها، ولكنه رجل في كل الأحوال.

تنهدت السيدة:

ـ ما زلت لا أصدق أن كريس نضجت إلى هذا الحد واحلوت إلى هذه الدرجة لكنني لا أظنها تعي جمالها ونضوج جسمها أو التأثير الذي تتركه في الناس.

ـ إن لهذا الأمر جانباً حسناً. . فهي ليست شابة سخيفة لا تفكر سوى في جمالها. أليس كذلك؟

ـ بل هي بعيدة عن ذلك كل البعد، إنما هناك شيئاً لاحظته خلال حياتي الطويلة أن لمثل هذا النوع من الفتيات البريئات جاذبية خطيرة بحد ذاتها، ولن أقول المزيد، لئلا تركض وتشتري مسدساً. . ما علينا سوى ان نثق بحكمة المولى.

ابتسم السيد نيوتن، ولكم خدها مداعباً: «نعم علينا الاعتماد على المولى».

* * *

بعد شهرين، استيقظت ترايسي يوماً وهي تشعر بأنها تتآلف مع حياتها الجديدة بشكل رائع. . حتى صعب عليها تخيّل حياة اخرى.

استلقت جامدة في سريرها تصغي إلى غناء العصافير وتفكر في الشمس المتسللة عبر أوراق شجر الصمغ وصولاً إلى الندى العالق على الأعشاب المرتفعة وفكرت في الاخضرار الغامض الذي يبدو فوق التلال القابعة خلفها تلك التلال التي ترتفع أينما كان وكيفما كان.

ثم، استرعى انتباهها وقع حوافر جياد، وعلمت أنها تأخرت في الاستيقاظ لترتيب السباق الموسمي الذي يجري في مؤسسة غاليهار، والذي يجري ستة أيام في الاسبوع بلا انقطاع. إنها المرة الأولى التي تمهل نفسها في الاستلقاء في السرير والتفكير في أمور عديدة. نظرت إلى حلبة

السباق ذات السياج الخشبي المطلي باللون الابيض، ثم إلى الطريق الخاصة التي تمتد من الحلبة بعيداً ثم نظرت إلى المنزل الكبير وإلى شجرة الفلفل القديمة المحيطة بها الأكواخ الرئيسية الثلاثة التي تعيش هي في كوخ منها.

لو ألقى أحد الناس على المكان نظرة من الجو لحظي بمنظر مثير من الروعة مزيج من الاخضرار والابيضاض. فكل المباني مطلية بلون أبيض ثم هناك المرجات الخضراء المحيطة بحلقة البيع وبالحظائر العشر المسيّجة.

بل إنها اكثر من ذلك. إنها مجتمع بحد ذاته. . او بالحري، عائلة كبيرة، ولو كانت (فتاة جمعة) ناجحة لأصبحت أكثر من فتاة جمعة. . لاصبحت واحدة من أفراد هذه العائلة، المتعددة الاشكال والألوان، والمثيرة للغموض في آن!

فكرت في جيرانها بحب: جاك ولولا فوكس. . جاك هو مدير اسطبل كريس ومدرب خيوله، انه رجل هادىء ذو وجه مرح وهو أب لخمسة أولاد، أعمارهم تتراوح بين السادسة والسادسة عشرة أما زوجته المتهورة لولا، فهي طفلة أكثر من جميع أولاده.

يعيش وراء منزل آل فوكس مايكل وهيلين يونغ اللذان أنجبا طفلين ثم هناك الجوكي المفضل لدى جاك، كيلي هنتر. كان مايكل يونغ بيطرياً بالخبرة، وخبيراً باسنان الجياد ورجل الاعمال الصعبة. كان نحيلاً قوي الجسد عكس زوجته هيلين، الضخمة المهيبة الطلعة والشخص الوحيد الذي يخشاه كيلي هنتر على هذه الأرض.

أما آخر فرد من الموظفين الدائمين فهي السيدة بريتونز، انها السيدة التي تدير المنزل الرئيسي، ولها فيه جناح، وهي تشعر بأنها أرفع قدراً من الآخرين، ولكن لولا قالت لترايسي إنها بعد أن تتعرّف إليها ستجدها لطيفة محبوبة.

جلست ترايسي في الفراش، ثم تمطت تفكر في مخدومها وعملها، كان لها مكتب في المنزل الرئيسي مجاور لمكتب كريس، وهي تعتقد أنه

حتى الآن كان راضياً عن عملها الذي ينصبّ في معظمه على تنسيق إدارة كل أوجه النشاطات في الممتلكات. وهذا ليس بعمل يسير كما يبدو.

إن أول عمل تقوم به عادة ميزانية مخطوطة سلفاً تلتزم بها، إضافة إلى الاعمال الحسابية المرتبطة بهذه الميزانية.. وهناك فواتير الأطعمة التي تتناولها الجياد والأطعمة التي يتناولها العمال... وكانت هي على علاقة مع السيدة بريتونز في ما يتعلق بالاستقبالات كما تقوم بالإشراف على الجياد التي تمرّ بمختلف مراحل البيع لتتمكن من عرضها على المشترين بطريقة عارفة في غياب جاك ومايكل.. في الواقع، هناك عمل كاف يشغلها من الفجر حتى الغروب.

وثمة عمل آخر تقوم به دائماً مع أن الوقت تأخر عليه هذا الصباح وهو اعتلاء صهوة الجياد بناء على طلب من جاك.

أما بالنسبة لكريس غاليهار، فكان عليها معرفته بطريقة أفضل وفي هذا السياق اكتشفت بعض خصائله التي لم تكن ظاهرة للعيان إحدى هذه الخصال قدرته على تغيير شخصيته لتناسب مع كافة المواقف، فهو بين المراهنين ليس سوى مراهن وبين القرويين قروياً وهو في مكتبه مختلف كل الاختلاف فهو يمضي بعض الوقت في قراءة كتب كتلك التي كان يحبها والدها. وقد أمضت ترايسي بضع امسيات معه، يتحدثان عن الغرب الذي تعرفه خير معرفة. وقد عرض عليها في إحدى الأمسيات اللوحات التي بحوزته وهي لمشاهير الرسامين كما أراها أشياء أخرى اشتراها من الخارج أثناء تجواله عبر البحار.

وثمة جانب آخر لم تكتشفه إلا بالتدريج. كان غالباً ما يمضي ليلة خارج منزله على غير توقع، ولم تتضح لها الأسباب إلا صدفة، يوم كانت في البلدة في يوم عطلتها فوجدته مع شقراء جميلة، كانت تنظر إليها بطريقة غريبة، كما اتضحت لها نظرات السيدة بريتونز المعارضة التي كانت تراها دائماً على وجهها عقب قضاء ليلة خارج البيت وكان كريس يتجاهل النظرات او يتقبلها بمرح بارد.

لا شك أنها حبيبته، ولا تدري ترايسي لماذا حسدتها ولكنها لم

تحسدها لأنها حبيبته بل حسدتها على اناقتها وترف مظهرها.

أما الجانب النهائي من شخصية كريس غاليهار، فكان ذلك الذي واجهته مراراً.

تذكر أنه في صبيحة ذاك اليوم وقع أول اصطدام مع مخدومها وكان سبب الاصطدام كلباً شارداً. يومذاك قال لها:

ـ ترايسي! إن كنت مسؤولة عن وجود هذا الحيوان الشارد، فهلا تخلصت منه حالاً. أعتقد أن والدك كان سيقول لك ذلك.

نظرت ترايسي إلى الكلب الصغير المرتجف بين ذراعيها.. لقد أنقذته منذ برهة بمساعدة الموظفين من أحد كلاب الحراسة الالزاسية الشرسة، التي تحرس الاسطبلات، ورفعت رأسها لتقول بوضوح:

ـ ما كان والدي ليقول شيئاً كهذا. الكلب ضائع ولا منزل له.

ـ إذن اتصلي بجمعية الرفق بالحيوان فلا يمكنه البقاء هنا.

ـ لماذا؟ سأعتني به، فلقد أحببته.

بدا الاستياء على شفتيه والتفت إلى جاك فوكس:

ـ جاك.. أليس هذا هو الكلب نفسه الذي ركض فوق حلبة السباق هذا الصباح وكاد يوقع الفرس تيرا ناهيتي؟

قاطعه كيلي هنتر:

ـ طبعاً هو ولم أعرف كيف استطعت ابقاءها واقفة على قوائمها.

رد عليه كريس ببرود: «كنت أكلّم جاك».

عض جاك شفته وقال: «حسناً. هذا ما فعله».

لكنه كان يتساءل عما ستقوله زوجته لولا التي لا تخفي دعمها لترايسي وقد شاركت في تهريب الجرو إلى مسكنهم.. سارعت ترايسي تقول:

ـ جاك.. ألا يمكننا تدريب الكلب؟

كشّر جاك وجهه:

ـ أشك في هذا ترايسي... وأظنه سيبقى مصدر إزعاج لنا. انه من النوع الذي لا يفهم الخيول.. تعرفين أن بعض الحيوانات غير حذرة.

فهي تهرع إلى منتصف الطريق رغم سماعها هدير سيارة قادمة، ثم تبدو مذهولة حين تصدمها. . وهذا الكلب منها.

ردت بعناد، تربت الجسد المرتجف الصغير بلطف: «لا».

قال كريس:

ـ جاك على حق ترايسي. . ستزجينه وتزجين نفسك بحياة بائسة ألا ترين هذا؟

ـ إنه. . بائس. . محروم. . ويثق بي. أعرف هذا.

ـ ولكنه لا يثق بك ثقة تجعله يطيعك.

ـ كيف يمكن أن تكون قاسياً إلى هذا الحد. قد تتخلص منه جمعية الرفق بالحيوان!

نظر كريس إلى الكلب، في عينيه نظرة تؤكد إمكانية فرضيتها ولعل هذه النظرة كانت السبب في انفعالها حينما قالت:

ـ إن أجبرتني على ذلك، فلن أكلمك ثانية! أنا. . .

دوى صوت كريس كالسوط:

ـ ترايسي!

ثم ادار رأسه نحو الموظفين الملتفين حولهما وقال:

ـ لا أفهم سبب تحلقكم حولنا. إن لدينا أعمالاً متأخرة أكثر مما ينبغي.

سرعان ما غادروا تاركين ترايسي لمصيرها ولنظرة تينك العينين الباردتين القاسيتين.

ـ يجب أن تتخلصي من الكلب ترايسي، وسأتصل بالجمعية بنفسي طالباً منهم إيجاد مأوى له. أعطيني إياه.

سألته والدموع في عينيها:

ـ أتعني ما تقول؟ أتعدني؟

رفع عينيه إلى السماء قائلاً: «أعدك».

نظرت إلى الكلب ثم أعطته إياه فتناوله منها وراقبها وهي تهرول مبتعدة.

لكن المواجهة الثانية كانت أكثر إحراجاً لها من الأولى. . ليس لأنها زجّت نفسها في موقف سخيف فقط، بل لأن ما قامت به بعث إليها توبيخاً عنيفاً كذلك. . تساءلت، وهي تجلس في الفراش، ما إذا كانت قادرة على نسيان مهانة الاتصال بمخدومها مرة أخرى ومن المكان ذاته.

جاء صوت كريس يومذاك ليجيب عن الهاتف:

ـ ترايسي! أين كنت؟ أحاول الاتصال بك منذ ساعات. لدي وفد من المشترين سيصل بعد الظهر من هونغ كونغ. . . هل عدت إلى المنزل الآن؟

ـ لا. . الواقع أنني في مركز الشرطة.

ـ وماذا تفعلين هناك؟ مهما كان السبب فاتركيه وأسرعي بالعودة حالاً، فالسيدة برينونز ليست هنا أيضاً.

ردت بصوت منخفض:

ـ أعرف هذا كريس. . وهنا المشكلة لا أستطيع العودة.

ساد صمت متوتر، ثم قال لها:

ـ حسناً. . اصدميني بالخبر.

ـ فيما كنت أقود السيارة إلى نيرانغ هذا الصباح، شاهدت رجلاً يسيء معاملة جواده. . أظن أن الجواد كان يحاول أن يرميه عن ظهره. . ولكن الرجل كان يضربه على عينيه بسوطه وفوق رأسه!

ـ فتوقفت وحاولت التكلم مع الرجل؟

ـ أجل. . وهذا ما زاده غضباً وحدث أن مرت في هذه الأثناء سيارة الشرطة، مع أنني لم أرها. . .

صمتت تعض على شفتها، فقال ببرود:

ـ هيا. . . تابعي.

نظرت إلى السماعة، ثم أعادتها إلى فمها:

ـ حسناً. . التفت الرجل إليّ، ومع أنه يقسم أنه لم يكن ينوي فعل شيء، إلا أنني واثقة أنه أوشك أن يضربني بالسوط. في تلك اللحظة توقفت سيارة الشرطة.

ـ ولم تلاحظيها أيضاً. هيا تابعي.

ـ هربت منه، فوقع الرجل وفقد وعيه أما الجواد فتحرر منه ووقف وسط الطريق يسده.

ـ فهمت... ! وكم شخصاً أصيب، أو قتل، أم أن الاصابة لم تتعد الجواد؟

ـ ما من أحد أصيب أو قتل! والجواد بخير.. أو فلأقل بخير بمقدار ما يمكن أن يكون مع مالك كذلك الرجل.

ـ ما المشكلة اذن؟

تنهدت:

ـ كان هناك سيارة أخرى مارة حين شرد الجواد، فحاولت تجنبه، واصطدمت بمؤخرة سيارة الشرطة...

عم الصمت ثقيلاً هذه المرة حتى قال:

ـ حسن جداً... وبماذا اتهموك؟

برقت عيناها في وجه رجل الشرطة الواقف قربها:

ـ لم يستطيعوا إيجاد ما يتهمونني به. بل أنهم لم يتهموا الرجل حتى بالقسوة على الحيوان.. كل ما قالوه لي، ان علي في المستقبل أن اهتم بما يعنيني فقط.. لكن، انتهى بنا الأمر جميعاً إلى المركز هنا. ودفعوني لمرافقتهم إلى مركز الشرطة.

ـ إذن، ما زالت تسير؟

ـ أجل! ولكن مُنيت بصدمة كبيرة في مؤخرتها.. أنا لا أحمل المال، وليس في المنزل من يساعدني. حسناً فكرت في الاتصال بك في المكتب.. كنت ذاهبة لأحمل البريد. أنا آسفة لأنني أزعجك.

رد، بشيء من الضحك المكبوت في صوته..

ـ وهذا ما يجب ان تشعري به.. حالما نصل إلى المنزل ستضطرين للعمل بجنون لأن زبائني من هونغ كونغ سيبيتون ليلتهم في منزلي.. انهم ثلاثة...

رغم رنة الضحك التي ظنت أنها سمعتها في صوته، تلقت منه

محاضرة لاذعة عندما كانوا راجعين والمحاضرة كانت تتعلق بعدم التدخل بشؤون الناس. أصغت إليها مرغمة ولكنها حافظت على رأيها بالموضوع لنفسها. ولكن، يبدو أنه أدرك ما تفكر فيه فقد قال وكأنه يوجه الرصاصة الأخيرة:

ـ بدأت أحس بالشفقة على تلك المدرسة التي كنت فيها. كما بدأت أفهم سبب ضرورة إرسالك إليها...

استفاقت من ذكرياتها، لتقول لنفسها إن إحدى ميزاته هي انه لا يحمل ضغينة في قلبه مع أنه يعاملها معاملة طفلة في العاشرة أحياناً. ولكن فرصتها الكبيرة لإثبات نفسها ستكون الآن في هذا الموسم بالذات لأنه أكبر المواسم حتى الآن.

قطعت أفكارها هذه طرقة على الباب ووقع أقدام تشير إلى أن صاحبها قد نفد صبره.

ـ ترايسي! ألم تستيقظي بعد! ايتها الكسولة!

نظرت ترايسي إلى الوجه المشرق الصغير، وإلى خصلات لوسيا فوكس التي لم تتجاوز السادسة عشرة، والتي تبدو طفلة في ثوبها المدرسي.

ـ اعرف.. أشعر بالكسل هذا الصباح، ولا أدري السبب. مع أنني أراك نشطة ومتعشة.

كشرت لوسيا في وجهها:

ـ.. قال أبي لأمي، ليلة امس، إن المنزل يبدو كالماخور بسبب حاجته للتنظيف، فسألته كيف يعرف ما هو الماخور... وحصل بينهما شجار طويل عريض. وهذا الصباح لم يتبادلا الكلام، ولكنه أخرجنا جميعاً من الفراش فجراً لمساعدتها، وهذا ما تراه أسوأ من العمل بمفردها... في الواقع لا أدري لماذا يزعجان نفسيهما بالأمر، بعد يوم او يومين سيعود المنزل إلى سابق عهده من القذارة... ما أردت قوله لك، إن اليوم هو الجمعة، وتقول أمي إن بإمكاننا إقامة حفل شواء قرب النهر الليلة، فهل ترافقيننا؟

ـ أنا...

ـ أوه... لا تقولي إنك مشغولة في المنزل. فأنا آمل أن تحملي معك الغيتار والهيرمونيكا فالسيدة يونغ ستأخذ معها الأكورديون. ترايسي، إن كنت لا تستطيعين المجيء فسأذهب لرؤية كريس و...

ـ لا حاجة للذهاب إليه، فأنا الليلة في عطلة.

ـ أوه... عظيم. إنما لديّ فكرة: سأطلب من كريس مرافقتنا إنه مرح جداً...

صمتت عندما سمعت صرخة بعيدة:

ـ هذه لي.. أمي تصيح، من الافضل أن أعود... هل تطلبين منه مرافقتنا ترايسي؟ أراك لاحقاً، أيتها الكسولة. ولا تنسي ان تسأليه.

تركت المنزل تصيح لأمها بأنها قادمة بصوت حاد، جعل ترايسي تصم أذنيها.

لم يكن طلب دعوة كريس مفاجئاً لها، فلم يطل بها الوقت حتى اكتشفت أن له طريقة خاصة في معاملة الاولاد، أحست يوماً بالدفء يغمر قلبها حين هنأها على طريقة معاملتها لهم... فقد قال لها، وكان قد مضى على وجودها هناك قرابة الشهر:

ـ كيف حالك... يا عازفة المزمار؟

ـ من؟ أنا؟

ابتسم:

ـ كلما رأيتك وجدت خلفك قطاراً طويلاً من الاولاد. ألا تشعرين بأنك أشبه بعجوز تعيش في حذاء قديم؟

ردت مبتسمة:

ـ احياناً.. ولكن هذا يمنح امهاتهم فرصة للراحة، وأنا أحبهم.

ـ أرى أن الحب متبادل. يبدو أن لك سحراً مع الاولاد، مع أنني اسمع نغمات متنافرة تتصاعد من منزلك أحياناً... وكأنك، والأولاد، تخنقون القطط.

ـ اوه.. يا إلهي! هل الأمر بهذا السوء؟ المسألة انهم جميعاً يريدون

تعلم العزف على غيتار وهيرمونيكا أبي، وقد يكون الأمر أسوأ من هذا بكثير.

ـ وكيف؟

ردت مازحة: كان سيكون أسوأ فيما لو كان لي عندي طبل.

ـ لا سمح الله!

ابتسمت لنفسها تفكر: أجل، سيكون الأمر أسوأ إنما هذا إن لم أخرج حالاً من الفراش. نظرت إلى ساعتها، وتحركت فوراً.

دار كريس في كرسيه الكبير لينظر إلى خارج نوافذ مكتبته المرتفعة التي توفر له منظراً واسعاً لأملاكه، وقال:

ـ أظنك تمسكين بكل شيء في يدك ترايسي؟

كانت ترايسي تجلس على جانب المكتب، تتصفح دفتر ملاحظاتها، كانا يناقشان عملية بيع مجموعة أفراس مشهورة للاستيلاد، ستجري يوم الثلاثاء القادم.. كانت الافراس والجياد قد وصلت يومي الأحد والاثنين. ومؤسسة غاليهار ستفتح أبوابها للعموم، وسيتمكن المشترون من التفرج على ما يرغبون من الجياد.

قالت ترايسي، وهي تسجل ملاحظة:

ـ أنا.. أظن هذا.. نظمت أمر توزيع المرطبات، وإقامة السرادق ليوم الثلاثاء، كما استدعيت متعهدي الطعام، وتشاورت مع السيدة برينونز بشأن الغداء الخاص الذي ستقيمه، اوه، على فكرة، طلب مني كيلي أن اعلمك بأن هناك تغييرات في الكاتالوج.. فثمة فرس اسقطت حملها ليلة أمس وأخرى كان المفروض أن تكون حاملاً، بدا أنها ليست حاملاً. ولقد طبعت التصحيحات.

أبعد نظره عن النافذة وابتسم لها:

ـ كفؤة جداً، آنسة تشسترتون.

ـ شكراً لك.. ولكنني أعتقد أن الرهان سيكون في تقديم الحلوى.. أعني، إذا استطعت قول هذا فيما بعد، سأكون قد تجاوزت الامتحان الحقيقي.

ضحك:

ـ أعتقد أنك محقة... أكنت تعانين متاعب مع معجب جديد؟

أشاحت وجهها لأنها شعرت بالاحمرار يرتفع إلى وجنتيها، لأسباب خارجة عن إرادتها. كان كيلي هنتر يحس بميل نحوها، مع أنه أصغر منها بسنة تقريباً وأقصر منها بعشرة سنتمترات. ولكن لم يغير هذا الواقع شيئاً قالته أو فعلته. فهو يدأب على ملاحقتها لتوافق على مرافقته إلى السينما المكشوفة في سيارته، ويحمل إليها غالباً باقات من الزهور يجمعها من المساكب التي تحد الطريق الداخلية الموصلة إلى المنزل كما يصفّر لها كلما مرت به وقد حدث مرة أن أثارها فصفعته.

وقد أزعجها ذلك كله فهي لم تلق قط صعوبة في إبعاد الشبان عنها، واضطرارها إلى صفعه لا يتماشى مع الصورة الأنيقة التي تحاول إحاطة نفسها بها.

ولعل أكثر ما أزعجها أن كريس كان شاهداً على تلك الصفعة فقد كان مختبئاً ولم يكشف عن نفسه إلا بعد ابتعاد كيلي، فخرج مقهقهاً حتى اضطرت إلى مماشاته.

ردت باختصار:

ـ لا.. ثم ألا تعلم أن من سوء الأخلاق استراق السمع؟

ـ أتسمين ما حدث يومذاك استراق سمع. كنت أظن العكس. أشك في أنك كنت ستختارين مكاناً أقل علنية.. كان بإمكان مطلق شخص أن يكون على مرمى السمع، وهذا الشخص لو لم يسمع صدى الصفعة لكان أصم.

شدت ترايسي فكيها ونظرت إليه ساخطة، كانت تحس أحياناً بما يثير أعصابها وهذا ما أدركت أن سببه جاذبيته ورجولته. ربما هو في عمر والدها وربما الشيب يخالط شعره الأسود وعيناه ناعستان دائماً ولكن في جسده الرشيق شيئاً يخطف منها أنفاسها وفي بعض الأحيان كانت تشعر بأن رؤية يديه الرشيقتين السمراوين تبعث فيها التأثير نفسه ولكنها كانت تظن أن جميع الفتيات يشعرن بهذا الشعور لذا لم تتوقف عنده. ولكن ما

كان يثير أعصابها أن تراه يتسلى وبطريقة متغالية، بما تمر به مع كيلي.

فبما كانت تفكر في ذلك استغل سكوتها ليقول:

ـ ألا تظنين أنك قاسية عليه؟

فغرت فمها دهشة، فاستغل هذا كذلك ليضيف:

ـ قيل لي إن الوقوع في الحب يحوّل الحياة إلى جحيم.. ولكن المرء لا يتعرض للصفع مع عذابه.

وتراقصت عيناه بخبث..

أقفلت ترايسي فمها، بصوت ظاهر، ثم سحبت نفساً عميقاً وقالت بعذوبة:

ـ إن كنت تعتمد فقط على سماع ما يقال يذهلني أن تشعر بنفسك قادراً على تقديم النصيحة لي، ولو مكرهاً.

قهقه قائلاً بإعجاب:

ـ إصابة موفقة ترايسي.. ولكنني رغم ذلك كله لا أستطيع إلا الشعور بالاسى على كيلي.. كان يجب عليه أن يجد فتاة تناسبه، فتاة حلوة صغيرة يمكن ان تبادله اعجابه عوضاً عن أن تبادله مخلوقة أخرى كلماتٍ في لسان لاذع وصفعة من يد.

أحست بغضب شديد، وقاومت نفسها لئلا تنقض عليه بقبضتيها اللتين يصفهما.. وليزيد الأمور سوءاً ارتدّ في مقعده يراقب معركتها الداخلية بنظرة اهتمام متحفظة، وعندما تمكنت من العدّ حتى العشرة كان قد قال:

ـ حكيمة جداً.

ـ ماذا تعني؟

رفع حاجبه ساخراً:

ـ لم تجدي من السهولة ايقافي عند حدي كما فعلت بكيلي.

ـ أنا... حسناً!

ووقفت بغضب:

ـ يجب مع هذا أن أقول إنني دهشة لأنني أسمعك تعترف بأنك بحاجة

لمن يوقفك عند حدك.. أتفضل لو شجعته، ثم صفعته؟ لو سمعت ما كان يقول لي...

ـ سمعته.. كان يطري هبة محددة في تركيبة جسدك بكلمات غامضة، ولكنه لم يكن يهذر بل كان يقول الحقيقة فقط.. فلك فعلاً جسد جميل ترايسي، ولكن قبل ان تنفجري غيظاً أوافقك الرأي فهذا شأنك الخاص حتى تختاري العكس.. ولكنني دهش نظراً لشفقتك المتطرفة تجاه ذلك الكلب الشريد، والجواد الذي سيئت معاملته، لا أفهم طريقتك في معالجة هذا الأمر. ولكنك على ما يبدو لا تدركين أن المرء حين يكون شاباً في السابعة عشرة ولا يزيد طوله عن المتر ونصف يكون ضعيفاً جداً، مع أن كيلي يفضل الموت على أن يعرف احد هذا.

كانت ترايسي على وشك الخروج، لكنها ارتدت لكلماته وسعت عيناها لعينيه، فصدمتها جديتهما فجلست ثانية وقالت ببطء شديد:

ـ لم أفكر في الأمر على هذا المنحى.. أتظنه يشعر بهذا فعلاً؟

تفرس فيها عن كثب مفكراً:

ـ لا أظن أنه سيعاني من الوجد طوال حياته.. مع أن الحب الاول يكون مميزاً بشكل ما.. ويجب أن تمنحيه التقدير لمثابرته أمام صعوبات عظيمة.

ردت ساخرة:

ـ شكراً لك.. وماذا سأفعل؟ أنا.. أعني.. لم يسبق أن حدث معي شيئاً كهذا قط.

ـ قط؟

ـ لا.. لم يجرؤ أحد من الصبيان الذين عرفتهم على التحرش بي بسبب صداقة وحزم والدي كما أنه لم يكن هناك أحد يملك عقلاً راجحاً ينظر إليّ مرتين.

رفع كريس حاجبيه دليل عدم التصديق ولكنها أردفت تفضي إليه:

ـ هذا صحيح.. كان لدي دعامات على اسناني، أنظر إليها على انها تكفي لحراسة قلعة «فورت نوكس»، ولم أكن أبدو سوى يدين وقدمين.

أتعلم.. كنت خرقاء غير مترابطة أقول دائماً ما أفكر فيه، إضافة إلى إيقاع كل شيء على الأرض، والتعثر بكل ما يمر بطريقي.. و...

صمتت مضرجة الوجنتين قليلاً... فقال:

ـ تابعي.

ـ كنت شديدة النحول.. وعندما كنت في الخامسة عشرة، كانت الفتيات اللواتي أعرفهن شابات فعلاً أما أنا فكنت كلوح خشب...

تمتم يلوي شفتيه:

ـ وأنا كنت كلوح خشب في السن نفسها. فما الذي غيّر الحال برأيك؟

ـ لا أعرف. ربما تأخر نموي كالبطة «كلينغ»، ولكن، فلنعد إلى موضوع كيلي.. أعتقد أنه كان بإمكاني أن أكون أكثر لباقة، إلا أنني.. لكنك محق... فأنا...

قاطعها بفضول:

ـ ماذا كنت تنوين القول بعد «إلا أنني»؟

ـ كنت سأسأل عما إذا كان هناك طريقة لبقة لمعالجة أمور كهذا دون... دون.

ـ دون أن يساء فهمك؟

ـ أجل.. فما هو رأيك؟

تراجع مستنداً إلى ظهر كرسيه، فأحست لبرهة انه ينظر إليها بدون ان يراها.. ثم ظهر المرح في عينيه السوداوين، وتركت أصابعه القلم الذي كان يمسكه، وقال:

ـ أنا واثق أنني لو كنت أباك، لنصحتك أن تحذري من أن يساء فهمك، خاصة في مثل هذا الموضوع. لأن الفتاة في هذه المسألة بالذات عرضة لكافة أنواع المتاعب... ولكن كيلي ليس خطراً حقيقياً عليك لتحذري منه.. في الواقع حين لا يحاول مغازلتك أثناء اعتلائكما الجياد تبدوان متفقين، أليس كذلك؟ أعني أن له روحاً مرحة...

ـ أجل.. إذن، فأنت تعتقد أن عليّ أن اتخذه صديقاً؟

ـ ولِمَ لا؟

ادار كرسيه ثانية نحو النافذة، ثم عاد يستدير إليها وفي عينيه شيء من الرصانة الغريبة.

ـ ولكن، سيكون هناك آخرون غيره ترايسي... وسيكونون رجالاً لا أولاداً. لقد لاحظت بعضهم ينظر إليك بشغف.

انتفضت فابتسم بخبث:

ـ وفري طاقتك لمقاومتهم ترايسي.. فالثامنة عشرة عمر صغير لـ... للتورط مع أي كان، ولكنك لست صغيرة إلى حد ألا تقعي في الحصار... خاصة في العالم الذي تدورين فيه الآن، ومع الرجال الذين تقابلينهم. أضيفي إلى هذا كرهي الشديد لخسارة سكرتيرتي التي دربتها.

استوعبت ترايسي ما قاله بصمت، وبنظرة قلق... ثم قالت:

ـ أشعر حقاً بالأسى لما فعلته بكيلي. ليتني تصرفت معه بطريقة اخوية.. فربما أراد أن يتعلم العزف على الغيتار! وفي الحديث عن الغيتار، انت مدعو إلى حفل شواء الليلة...

وشرحت له الأمر مضيفة بخشونة:

ـ أعتقد أن جاك يلعب دور الأب القاسي كذلك لذلك ستكون الحفلة نوعاً من الراحة للأولاد.. فهل ستأتي؟

ـ وأنا أيضاً؟ أتظنين أنني أقوم بدور الأب القاسي؟

عبست ترايسي واحمرّ وجهها.

ـ لم أعن بقولي ذلك، فأنا أقدر لك نصيحتك واهتمامك، حقاً! لكن لا أظن أن هناك خطراً في أن أقع لمجرد أنني أتمتع بحياتي كما هي. احس أنني أحقق شيئاً، اكسب عيشي، وما إلى ذلك. وأنا اشكرك على كل شيء.. حقاً. لكن.. مع ذلك.. فأنت محق في شيء واحد...وهو أنه من الغلط الجسيم عدم الاهتمام بالبشر.

صمتت تنظر إليه، وفي عينيها خبث ما:

ـ أتود أن أراهنك؟

نظر إليها بدهشة: «فيمَ تفكرين؟».

ـ أراهنك أن كيلي هنتر، سينساني في المستقبل القريب، وذلك بعد أن أستخدم طريقة لطيفة... أترى.. يبدو لي الأمر تحدياً وأنا لا أقوى على مقاومة أي تحدي.

وقفت تبتسم له وتكمل:

ـ لم تخبرني هل سترافقنا الليلة؟

التوى فمه وهو ينظر إليها، وتجاهل سؤالها قائلاً:

ـ أنت قطعة رائعة من الكتلة القديمة التي أعرفها، ترايسي... أجل.. سأرافقكم الليلة، لكن ربما اصطحبت معي شخصاً آخر. ولا أظن هذا سيسبب المتاعب؟

ردت بخفة:

ـ لا أظن هذا. هل لي أن أذهب الآن لأتناول الغداء؟

تركته يحدق إلى الباب ولكنها لم تر البسمة القلقة التي ارتسمت على وجهه.

* * *

Aml
www.liilas.com

٣ ـ يقظة القلب

قالت لولا فوكس مفكرة:

ـ أتساءل من سيصحب معه؟

تخلت عن انهماكها بتنظيف البيت بدعوة من ترايسي. وبناء على تأكيدها بأن «سيدها» ذهب إلى «ساوثبورت» ولن يعود قبل بضع ساعات، وافقت على أن تشارك ترايسي غداءها.

صبت ترايسي الشاي وهي تسأل:

ـ من؟ جاك لن يصحب معه أحد. قلت لك انه ذهب إلى...

قاطعتها لولا غاضبة:

ـ ليس جاك.. اصنعي معي معروفاً ولا تذكري اسمه فترة فما زلنا على خصام يظن الجميع أن الغلطة غلطتي لأنهم يرونه الشخص الوحيد النظيف المرتب في العالم! لا.. أنا أعني كريس.. وأتساءل من سيصطحب معه إلى حفل الشواء؟

ردت ترايسي تنظر إلى جارتها المتعبة بمحبة:

ـ لم يقل لي.. على فكرة، أظنك رائعة... وقادرة على تدبير أمرك بشكل رائع.. وأنا واثقة أن جاك مثلك تماماً، في اعماقه.

كادت لولا تتفوه برد لاذع، لكنها غيرت رأيها وضحكت:

ـ اتعلمين ما الذي جعل الأمور تسوء هكذا؟ هذا الصباح، لم يجد فرشاة أو مشطاً علماً أن في البيت دزينة على الأقل.. بدا بالفعل مضحكاً بشعره الأشعث فضحكت وهذا ما جعله يرغي ويزبد! ولكن لنعد إلى كريس، أظن أن في حياته سيدة جديدة، ويظن جاك انها كانت معه ومع دان رانكين في السباق، منذ بضعة أسابيع.

تركت لولا رنة كراهية تتسلل إلى لسانها عندما فاهت باسم دان رانكين.. فسألت ترايسي:

ـ دان.. أهو ذلك الرجل الأحمر الشعر، الذي يحضر إلى هنا دائماً؟ أو مؤخراً على الأقل؟

ـ إنه نذل مع النساء.

ـ لماذا يدأب على المجيء إلى هنا؟

ردت لولا:

ـ انه يملك نصف الفرس «تيارا تاهيتي» قبل أي شيء..

وبدا أنها ستضيف شيئاً عنه، ولكنها عادت إلى موضوع كريس، وصديقته الجديدة. ثم أنهت كلامها:

ـ المشكلة، ان القليل من النساء يستطعن مقاومة كريس، أتعلمين... لكن، ما لا يدركنه هو أنه خسر قلبه مرة منذ وقت طويل، ولا ينوي استرداده مرة أخرى.

سألت ترايسي بفضول: «ماذا تعنين؟».

ـ كان الأمر هكذا: حين قدم من الغرب لم يكن امامه ما يفعله سوى السعي نحو الأفضل. وما ان مرّت عليه سنتان، حتى أصبح رئيس عمال في اسطبل للسباق، ولكنه لسوء الحظ وقع في حب ابنة أحد المالكين، ووقعت هي أيضاً في حبه غير أن والديها، ولا يمكن أن تلوميهما، كان لديهما مخططات أخرى... فطردا كريس، واصطحباها إلى أوروبا مدة سنة، وحين عادوا، زوجاها من شاب ثري ورث امبراطورية من المراعي والمواشي ونال كل التعليم المناسب، حسنا.. صعب الأمر كثيراً على كريس، غير انه كان لما حدث جانب حسن فقد بات أشد تصميماً على النجاح. وهذا ما فعله.. منذ ذلك الحين، لم يترك نفسه يقع في الحب مع أن في حياته عدداً هائلاً من النساء.

ـ أما زال يحبها؟

ـ أظن ذلك... لكن، لا يمكن أن نفكر أن مدة خمسة عشر عاماً مدة طويلة لبقاء جذوة الحب مشتعلة مهما كان المحب. ولكن حين تلاحظين

لطفه مع الاولاد يتملكك العجب. يقول جاك إن المرة الوحيدة التي مُني بها بالاكتئاب الى درجة الضياع، كان يوم قرأ في الصحيفة أن لينورا سينكلر تزوجت رجلاً آخر.

جلست ترايسي هادئة، تفكر في هذا الجانب غير المتوقع عن رئيسها.. ولم تستطع منع الارتجاف من اختراق أوصالها خاصة عندما تذكرت كلماته هذا الصباح: قد يكون الحب الاول أحياناً مميزاً جداً. اذن فهو يعرف عما يتحدث. قالت ببطء:

ـ ربما أنت على حق. وهل عرفته منذ ذلك الوقت؟

ـ منذ تزوجت ولكن جاك عرفه قبلي فقد ترعرعا معاً تقريباً في الغرب. كان طائشاً متهوراً بمقدار ما قد يكون الولد طائشاً، حسب قول جاك. امر مضحك.. أليس كذلك؟ لا يمكن أن تصدقي هذا الآن.. صحيح؟ ولكن في بعض الأحيان عندما يجن جنونه، تشعرين.. صعب أن أفسّر لك.. تشعرين انه قادر على فعل أي شيء... مع أنه لا يفعل شيئاً، ولكنك تشعرين بأن فيه جزءاً لم يروضه أحد حتى الآن.

ـ كم عمر كريس؟ لم استطع معرفة هذا.

ـ ستة وثلاثون عاماً.

ـ هذا ما ظننته، لكنني لم أكن واثقة.. حسناً.. ذكر مرة أمامي أنه في عمر يخوله أن يكون والدي.

وروت الأمر للولا وما حصل لها معه في المصعد. حين انتهت من الضحك على الذكرى قالت لها لولا:

ـ يا للمسكينة! إن هذه الحادثة سيئة كحادثة الجواد والشرطة. آسفة، ما كان يجب أن اذكرك بهذا... ما أنت بحاجة إليه ترايسي هو حارس دائم.

وغرقت في الضحك لتبتسم لها ترايسي وتقول:

ـ شكراً لك.

ـ عملياً، إنه محق، فهو في عمر يصلح ليكون أبيك.

ـ إنه يتصرف فعلاً وكأنه أبي أو كأنه حارسي أحياناً... انه والسيد

نيوتن، يشكلان فريقاً رائعاً.

قالت لولا:

ـ آه.. حسناً. إن هذا يصب في خان مصلحتك خاصة وأنا أرى الطريقة...

وصمتت.. فسألت ترايسي بذهول: «ماذا؟».

ردت ببطء: «لا شيء».

ثم غيرت رأيها وقالت باندفاع:

ـ ترايسي.. يجب أن تحذري حبيبتي. لا تظني أنني متزمتة حين أقول هذا ولكنك ما زلت صغيرة ولا تفهمين كيف.. لنقل هذا.. ربما لا تعرفين من هو تماماً، ولكنني رأيت دان رانكين ينظر إليك عن كثب ذلك اليوم حين ظن أن أحداً لا يراه..

ـ ثم ماذا؟

ـ احذري منه.. كان في عينيه نظرة.. لا يمكنني أن أخطئها. إنه سيء الاخلاق ترايسي.

بدا الذهول على ترايسي:

ـ أظنك تتصورين الاشياء فلا تقلقي، حقاً.. فأنا لن أزج نفسي في أمر كهذا بل لا أراني أفكر فيه حتى.. أتفهمين ما أعني؟

لوت لولا رأسها إلى جانب واحد، وقالت بعد تفكير عميق:

ـ أجل.. وهنا تكمن المشكلة. إن الرجال يستهويهم الظن بانهم أول من سيعرفك على أسرار وعذوبة الحب. إن هذا يشكل مهمازاً أو تحدياً لهم.

فتحت ترايسي فمها لترد، ولكنها عادت فأطبقته فوراً لانداس فكرتين في رأسها، الأولى كلماتها المتعلقة بالتحدي والثانية عدم صدقها مع لولا أو مع نفسها. فهي تفكر أحياناً في هذه الأمور. فقد راح يتسلل هذا الموضوع إلى حياتها بصورة دائمة هذه الأيام عن غير قصد منها ولكن لم يكن لما تفكر فيه علاقة بأي من الرجال، أو الشبان الذين ينظرون إليها خفية بل له علاقة أحياناً بكريس غالبهار...

وهذا أمر غريب فعلاً... قالت تحدث نفسها: فهو لا ينظر إليّ نظرتي إليه. إنه يعتبرني ابنة عهد إليه أمر رعايتها وفي أحيان أخرى يراني ابنة مثيرة للمشاكل.

فجأة اعتلى وجهها نظرة قلق وارتباك، وهذا ما دفع لولا لتشعر بالأمومة نحوها... ثم شاهدت ذقن ترايسي يرتفع، ولمعان عناد يشعّ في عينيها وهي تقول:

ـ أستطيع العناية بنفسي لولا.. لقد تدربت بطريقة أو بأخرى في السنوات الماضية، لذا لا ارى سبباً لقلقك خشية أن أصبح متوفرة لأول رجل يتقدم مني.

هزت لولا كتفها:

ـ ليست الأخلاق بأمر ملموس يا حبي. خاصة حين يحاول شخص بارع إغواءك. أنا لا أظن أنك ستكونين متوفرة لأول من يتقدم إليك من الرجال ولكنني أحذّرك من الأخطار.. فأنا أعرف...

وتنهدت، فهبت ترايسي واقفة:

ـ سئمت من هذا، فهذه المحاضرة الثانية التي أتلقاها في الأخلاق خلال ساعتين.. فلننس الأمر الآن. ولنتكلم عن حفلة الشواء..

انصاعت لولا لها مبتسمة، مع أنها لم تستطع سوى أن تتساءل عما إذا كانت قد قالت الكثير، أو أن ما قالته غير كاف.

* * *

نظرت ترايسي حولها على ضوء نار الموقد الكبير الدافىء، الذي يلوّن جذعي شجرتي الصمغ العتيقتين والذي يرمى شبكة متراقصة من الألوان ذاتها فوق النهر المتدفقة مياهها بسرعة وصمت نحو الظلام. كان جميع المتحلقين حولها متبسمين فرحين، وكان ميتشل يونغ، الصبي ذو الخمس سنوات، وصاحب الوجه الملائكي قد تسلل إلى حضنها يتوسل إليها ألا تتوقف عن العزف بعد أن انهارت ضاحكة وهي تقول: كفى! لقد انقطعت انفاسي!

نجحت حفلة الشواء نجاحاً منقطع النظير، فقد خلّف الجميع وراءهم التوتر وانضموا إلى المرح. كان مايكل يونغ قد أقام موقداً فوق حفرة في الارض ووضعت فوقها اللحم والنقانق التي راحت تتلظى مرسلة رائحتها الذكية في الجو.. وكان أن أكلت فيما بعد مع السلطة والبطاطا المشوية بشره. أقام الاولاد مسابقات الركض حتى اشتد الظلام، ثم أخذوا يحاولون إخافة بعضهم بعضاً، برواية أقاصيص عن الجن والاشباح.. أما ذروة السهرة فكانت حين اقتنعت ترايسي بالعزف على الغيتار والهرمونيكا على أن يشاركها مايكل على أكورديونه... رقص الجميع، كباراً وصغاراً.. وكانت هيلين يونغ قد أظهرت براعة وخفة في الحركة رغم حجمها وضخامتها، ثم أتحفت ترايسي الحفلة بعزف منفرد على المزمار، وهذا ما ألهم كيلي هنتر على أن يقنع هيلين بالرقص رقصة انكليزية قديمة وقد نالا على ما قدماه استحساناً وتصفيقاً حاداً، خاصة حين رفعته هيلين عن الأرض ودارت به مرات ومرات.

كان الماهر الآخر في الرقص كريس غاليهار الذي جاء وحده فراقبته ترايسي بإعجاب وهو يعلم لوسيا بعض الخطوات المعقدة. ثم تعثرت اصابعها للحظة على أوتار الغيتار حين شاهدت الطريقة التي نظرت فيها لوسيا إليه... وفكرت.. يا إلهي! ها قد وقع قلب آخر... ولكنها نهرت نفسها متسائلة ماذا تعني بقلب آخر...

حين قال جاك إن عزفها رائع وإن من حقها الرقص أيضاً ردت ضاحكة انها تمرح بمقدار ما يمرح الجميع، والتزمت بما قالت، رغم خيبة أمل كيلي التي بدت واضحة للعيان ولكن ربما سبب رفضها هو عدم رغبتها في مراقصة كريس. لكن ميتشل قال لها وهو يلامس وجهها:

ـ هيا ترايسي.

فقبلت رأسه الاشقر قائلة:

ـ أوه.. حسن جداً.. لأنك كنت صبياً طيباً الليلة..

ابتسمت لهيلين وتابعت:

ـ لأنك كنت طيباً سأعزف لحنك المفضل.

فتأوه كيلي:

ـ لقد عزفت لحن الفالس ست مرات حتى الآن ترايسي... نحن نحتاج إلى لحن هائج وخطوات صاخبة..

قفز الصغير ميتشل مشتعلاً حماسة:

ـ أنا سأقود اللحن الهائج.. والخطوات الصاخبة..

وأخذ يدور حول النار فامتد حماسه إلى رفاقه الصغار ومن ثم إلى الكبار وراحوا جميعاً يدورون في قطار راقص قبل أن تضطر ترايسي ومايكل إلى التوقف عن العزف لشدة استغراقهما بالضحك على تصرفات الكبار قبل الصغار.

جلس كريس إلى جانب ترايسي يقول:

ـ من الجيد أن تضحكي، فأنت لست ضمن المجموعة لتتصرفي معهم بحماقة.

مسحت عينيها:

ـ لكنك كنت رائعاً ظننتك ستقفز في الموقد، ولن تخرج حياً.. ولقد أحب الأولاد هذا.

نظر إليها متفرساً:

ـ أشك في أنك عزفت ذلك اللحن لتتمتعي برؤيتنا نتعثر حول النار كالبلهاء.

أنكرت ترايسي: «آه، أبداً».

لكنها انفجرت بنوبة ضحك أخرى وأكملت:

ـ حدث الأمر صدفة.. يا إلهي.. أحس بالألم لفرط ما ضحكت.

ـ تستحقين الألم.

رمى ذراعه حولها بعفوية وضمها إليه.

ـ كنت عظيمة الليلة...

ـ شكراً لك.. كانت سهرة رائعة...

لكن رد فعلها لم يكن عفوياً كتصرفه، بل وجدت أنفاسها تنقطع وحمرة الخجل تغزو وجنتيها. بعد فترة بدأ عقد الحفلة يتفرّق وبعد

المساعدة في وضع مجموعة من الأولاد في اسرّتهم وبعد رؤية أنوار الجيران تنطفىء، وجدت ترايسي نفسها متعبة ولكنها غير نعسى فجلست على شرفتها، تصغي للأصوات الليلية... واكتشفت اكتشافاً مذهلاً... إنها تحس بالوحدة بشكل غريب وكرهت الدخول إلى غرفتها الفارغة.

هذا أمر مجنون، قالت لنفسها: أنا محاطة بأناس أحبهم، يهتم بعضهم بي اهتماماً كبيراً. لكنني في الواقع لا أنتمي لأحد، وليس لي من ينتمي إليّ! أعني، ليس لدي أقارب من جهة والدي وليس لي أقارب أيضاً من جهة أمي. ومن المؤسف أن لا أخ لي أو أخت..

سمعت صوتاً يقول لها:

ـ أتتكلمين مع نفسك ترايسي؟

شهقت وكاد يغمى عليها ذعراً، عندما خرج طيف طويل من الظلام.

ـ من..؟ كريس! ماذا تفعل هنا؟

استند إلى حاجز الشرفة، فالتقط نور القمر ما في شعره من لون فضي، ولكن وجهه بقي في الظل... وقال:

ـ قررت أن أعاين الجياد وظننتك نائمة.

ـ وأنا كذلك ظننتك نائماً.. لا أدري السبب، لكنني لا أشعر برغبة في النوم.

ـ إذن، تعالي معي لنحتسي شراباً ساخناً قبل النوم.. فأنا لا أرغب في النوم أيضاً.

فكرت لحظة، ثم وقفت: «حسن جداً».

سارا في بستان الليمون الحامض، ثم توقفت وسط الأشجار تتنشق رائحتها:

ـ أأنت من اقترح غرس أشجار البرتقال والليمون في هذا المكان؟

ـ أجل.. لماذا؟

ـ لأنها فكرة رائعة. أقف هنا دائماً لاتنشق الرائحة التي يعبق بها الهواء، وأتخيل نفسي في مكان استوائي حيث اريج البساتين، والأسماك الطائرة، والسماء الخضراء الشاحبة.. هل فكرت في ذلك حينما غرست

هذه الأشجار؟

ـ أجل . .

ـ إذن . . كنت هناك؟

ـ أجل ترايسي . .

مد يده يمسك يدها . .

ـ هل هذا أحد طموحاتك؟ الذهاب إلى افريقيا؟

ـ أوه . . أجل . . وليس إلى أفريقيا فقط، فطالما حننت إلى آسيا. أحب أن أرى جبل «إيفرست» وأزهار «نيبال» وتراتيل المصلين على الطرقات الجبلية، وقمة «ديكان» المشتعلة. وسأسافر يوماً.

كانت تتكلم كحالمة منجرفة في عالم رومانسي تحت ضوء القمر حيث الأريج عابق في الجو.

ـ لقد انجرفت . . لم أخبر أحداً من قبل بأحلامي . . لكن، لو كنت أنت هناك . .

ـ لكنني لم أرَ من قبل قمة «إيفرست».

ـ أوه . . لا أعتقد أن أناساً كثيرين رأوها، ولكن المستحسن أن يحلم المرء.

تابعا المسير مجدداً . . . وقال لها بعد قليل:

ـ أهذا ما تفكرين فيه حين تنظرين أحياناً إلى الناس بدون أن تعي وجودهم؟

ـ وهل أسرح حقاً في عالم آخر؟ لم أكن أعرف . . .

ـ أحياناً.

ـ ربما لأنني أكون مركزة على فهم الأمور كما هي، كان أبي يقول لي إنني لا أفكر إلا في اتجاه واحد. وكان يضحك عليّ لهذا السبب لكنني أظن أن ذلك عجز.

نظر إلى شعرها الأسود البرّاق، ثم ابتسم لنفسه:

ـ أهذا «تنين» آخر تتغلبين عليه ترايسي؟

رفعت رأسها إليه:

ـ أجل . . أمامي لائحة كبيرة منها. أليس كذلك؟ مشكلتي أنني أعامل الكلاب معاملة البشر وأعامل البشر معاملة الكلاب ومشكلتي الثانية أنني أفكر في اتجاه واحد فقط. كان لك يوماً مثل هذه المشاكل؟

وقطعت ابتسامة خشنة وجهها . . فضحكت عيناه لها:

ـ إن قصدت أن تسألي عما إذا كان عندي خطايا فنعم طبعاً. لا وزن لخطاياك أمام خطاياي. مثلاً: لدي طبع حاد كما كان والدك يقول لي دائماً.

ـ حسناً . . كان يراه لأن طبعه كان مماثلاً لطبعك غير أنني لم ألاحظ أن عندك طبعاً حاداً. صحيح أنني شاهدتك غاضباً بارداً ولكن لم أر الغضب الشديد يستولي عليك، أعتقد أن للعمر أثره في هذه المسألة، فهو القادر على أن يخلصك منه.

ضحك ساخراً.

ـ عزيزتي ترايسي . . أحياناً أشعر وأنا برفقتك بأنني أب عجوز.

توقفت عن السير لتلتفت إليه.

ـ أتعلم أنها أكبر مشكلة علي مواجهتها؟ أحس أحياناً أنني ناضجة، ولكن شخصاً ما يحجّمني فأشعر بأنني طفلة ساذجة، وأنت خير من يفعل بي هذا. في الواقع حجمتني مرتين هذا اليوم، وهذا ما فعلته أيضاً لولا. فهل أنا طفلة . . إلى هذا الحد؟

أظهر نور القمر وجهه فشعرت بالراحة خاصة وهي ترى عينيه تضيقان وشفتاه تلتويان، ولم يلبث أن رفع يداً لمس بها وجهها، وقال برقة غريبة:

ـ أجل . . لست طفلة ولكنك ساذجة، وأظن انك ستبقين ساذجة دائماً. فوالدك كان هكذا بطريقة ما، وهذه السذاجة ستكون ميزة ثمينة عندما تكونين شديدة الدقة فلا تقلقي ترايسي.

سحبت نفساً عميقاً، ولم تعلم ما الذي دفعها لتقول:

ـ هل أحسست قط بالوحدة؟ هل هذا أمر . . طفولي؟ هذا هو حقاً سبب عدم رغبتي في النوم الليلة . . .

تحركت أصابعه على وجهها، ثم تغير بريق ما في عينيه. ثم ترك يدها

قائلاً: «أعرف».

ـ وكيف تعرف؟

ـ ليس صعباً التكهن... وليس الليلة بشكل خاص.. لكن حين وجدت صعوبة بالتخلي عن ذلك الكلب، أدركت تماماً ما أحسست به.

قالت بصوت منخفض:

ـ أوه.. ولكن.. يكون الأمر أحياناً أكثر مما يثيره بي كلب صغير...

هزت كتفيها تبتسم ابتسامة مرتجفة:

ـ في الواقع... لا أشعر هكذا دائماً.. وسأنجو، فأنا قاسية جداً داخلياً. لا شك في أن ضوء القمر ورائحة زهر الليمون هما من جعلاني جياشة العاطفة.

تثاءبت فجأة، فابتسمت:

ـ هاك.. أظنني سأنام نوماً عميقاً بعد هذا كله!

نظر إليها مفكراً، ومد يديه ليمسك بكتفيها، فرفعت رأسها إليه بتساؤل، فقال برزانة:

ـ أعتقد أنه مسموح لي أن أقبلك قبلة أبوية متمنياً لك ليلة سعيدة. ولكن بإمكانك المجيء لشراب ساخن مع ذلك.

هزت رأسها نفياً، وبدا لها أنهما تبادلا النظرات فترة طويلة قبل أن يضمها بين ذراعيه ويحني رأسه معانقاً.

لم يكن عناقه سوى لمسة خفيفة، ولكنه صدمها بشكل غير مألوف. وجدت أن أنفاسها انقطعت كما حدث في المرة السابقة، ولكن في هذه المرة أضيف إلى ما شعرت به إحساس مذهل بحنايا جسدها، وخفته ونعومته أمام قساوة جسده وقوته.

أحست للمرة الأولى في حياتها بارتباك مفاجيء وإحساس بانوثتها وبتفهم لطبيعتها النسائية كما أحست أن للفوارق والحدود التي طالما فكرت فيها، قوة جعلتها تشعر بدوار غريب، رافقه شعور خاص من الحزن.. والسبب أنها في الوقت الذي كانت تختبر فيه يقظة عجائبية،

كانت مجرد طفلة بالنسبة له.

ثم، تركها وارتدّ إلى الخلف، فرفعت يدها إلى وجهها بحركة لا واعية. تقلص شيء ما في وجهه وهو ينظر إليها، فأحست بقلق وارتباك كبيرين فانتزعت يدها منه، وتوردّ وجهها بشدة ثم بدا لها ان قدميها فقدتا القدرة على إطاعة أوامر عقلها الذي كان يأمرهما بالركض، وظلت على هذه الحال حتى قال بصوت متعب أجش:

ـ اذهبي إلى النوم ترايسي..

ثم ارتدّ على عقبيه مبتعداً وعندها تحرّرت من السحر الذي استحوذ عليها والذي سمّرها وكان أن عادت إلى كوخها متعثرة فدخلت إلى فراشها وعقلها متعب أجوف.

* * *

بعد عدة أيام اضطرت للاعتراف بأن عالمها البرّاق السعيد أصبح مكاناً رحباً للتوتر والضيق.. كانت قد حاولت يائسة ألا تفكر في ذاك العناق الذي كان تحت ضوء القمر، ولكن عدم التفكير فيه كان للمستحيل عينه. كافحت بشدة لتتصرف وكأن شيئاً لم يحدث ولكنها ظلت عاجزة عن منع نفسها من التفكير في تلك اللحظات وكانت كلما تذكرت وجدت نفسها ترتجف، وتحس بالبرودة وبالحرارة معاً.

تساءلت هل فكر في الأمر هو أيضاً. ولم تكن قد رأت عليه ما يدل على ذلك وعندما رأت عليه بعض الإمعان في التفكير عزت ذلك إلى أسباب أخرى. أحست أن جواً محدداً أحدق به وأقنعت نفسها أن السبب هو عروض البيع السنوية التي تجعلهم جميعاً متوترين..

كان هناك أمر آخر يقلق نفسها ألا وهو دان رانكين الذي تمنت لو أن لولا لم تقل شيئاً عنه فقد أصبحت مطاردته لها واضحة ولعل أبرز ما أظهر تصرف دان الغريب هو كيلي الذي كان يظهر كراهية غير عادية تجاه الرجل الطويل الاحمر الرأس الشريك في «تيارا تاهيتي» وكانت هذه الكراهية غير عادية.

أنت قدرك

كانت كراهية كيلي لدان وملاحقة دان الدؤوب لها سبباً آخر في توتر أعصابها ففهمت ما عناه كريس حين تحدث عن الوقوع تحت الحصار.

ولكن دان رانكين رغم هذا كله لم يكن مزعجاً فلم يقل ما وتّرها، بل على العكس كان يدفعها أحياناً للضحك بمزاجه الجلف ولم يكن هناك ما يجعلها تشك في دان هذا سوى تلك النظرة الغريبة المزعجة المطلة من عينيه.

وتابعت الحياة مسيرتها، واكتشفت مع مسيرتها أنها لا تستطيع السيطرة على أفكارها أو منع نفسها من التمني لو أنها أكبر سناً.

وفي أحد الأيام، بعد بضعة أسابيع وجدت نفسها تعتبر الأوقات المزعجة والمتعبة التي قضتها في العمل جنة إذا ما قورنت مع...

بدأ ذلك اليوم كأي يوم عادي. كان الجو صافياً والجياد في حركة دؤوب ونوافير المياه ترش العشب والمروج الخضراء.

يومذاك وقعت فتاة صغيرة عن دراجتها فجرحت ركبتها وكانت ترايسي في هذا الوقت راكبة بسيارتها تريد الوصول إلى «نيرانغ» لإحضار البريد.. كانت الفتاة قد مزقت ثوبها المدرسي وارتجفت ارتجافاً شديداً جعلها لا تذكر عنوان منزلها، بل لم تكن هذه الفتاة متأكدة تماماً من اسم عائلتها. فوضعتها ترايسي في سيارتها، وخبأت الدراجة خلف اجمّة، على أن تتخذ تدبيراً آخر بشأنها لأنه لم يكن للدراجة مكان في سيارتها الصغيرة. ثم اصطحبت الفتاة الناجية الباكية إلى المنزل وفي المنزل غسلت لها ركبتها ورتت ثوبها ثم قدمت لها كوباً من الحليب، ثم صحبتها لمشاهدة قفص طيور عائلة فوكس الذي يحتوي على مجموعة ملونة من البيغاوات الاوسترالية، وطيور الحب والكناري.. فلما رأت الفتاة الطيور نسيت مشكلتها وأمضت ترايسي وقتاً طويلاً تقنعها بالابتعاد.

ولكن مرّ الوقت، ولم تدرك ترايسي مرور الوقت إلا حين عادتا إلى السيارة وشغلت الراديو استعداداً للانطلاق، ولكنها سرعان ما توقفت مصعوقة عند سماعها تحذيراً مذاعاً من الشرطة.

كان القدر وحده هو من جعل جاك ولولا يغيبان، ومن جعل كيلي

ومايكل يختفيان ولهذا لم تجد سوى كريس للاستعانة به.

وهكذا وقفت في مكتبة البيت الكبير ومعها الفتاة المرتبكة. فسمعت كريس يقول بملل لا متناهي وهو ينقل بصره بين الطفلة الباكية وبينها.

ـ ماذا أرى بالله... عليك؟ طفلة شريدة؟

ـ أجل.. لا! حدث الأمر...

سحبت نفساً عميقاً قبل أن تشرع في شرح ما حدث.. فسأل بنفاذ صبر:

ـ حسناً؟ وما المشكلة؟ كان من الأفضل لو اصطحبتها إلى مدرستها، وتركتها عندهم لئلا يفتقدوها، أو لئلا يطلقوا الريف كله بحثاً عنها. ولكن...

قاطعته بجفاء:

ـ هذه هي المشكلة. إنهم يبحثون عنها.. وأنا.. سمعت في الراديو من نشرة الشرطة بأن الفتاة نسيت غداءها في المنزل فقصدت والدتها وجارهم المدرسة تحمل إليها الطعام وبالطبع وجدت أن الفتاة لم تصل إلى المدرسة فعادت تفتش عنها، ووجدت الدراجة.. فاستدعت الشرطة وها هم الآن يذيعون تحذيراً ويهدّدون الخاطف والأنكى أن من يقود حملة التفتيش هو ذلك الشرطي الذي كنت السبب في اصطدام سيارته.

وقف كريس بسرعة فذكرتها حركته الرشيقة بنمر يوشك على الانقضاض على فريسته، فارتدت خطوة إلى الوراء وهو يقول:

ـ يا إلهي.. لا أصدقك أحياناً ترايسي! منذ متى الفتاة معك؟

شحب وجهها أمام غضبه المستعر: أنا، أنا...

ـ لا بأس.. اسرعي إلى السيارة وسأكون معك بعد دقيقة.

واستدار إلى الهاتف.

وأعقب هذا أكبر حدث درامي في حياة ترايسي ولم يخفف من وقع الأمر عليها حتى مساعدة كريس ودعمه عندما راح يشرح ما حدث للضابط المتوتر الأعصاب الذي جعلها تشعر بأنها كبرت عشر سنوات في ظرف ساعات... والأنكى انها ظلت ترى غضب الشرطي المطل من عينيه وهذا

ما أخافها وأرعبها.

حين عادا إلى المنزل خرجت من السيارة وكانت على وشك الفرار عندما قال لها:

ـ لا.. لا تهربي.. لدي ما أقوله لك ترايسي!

اختار المكتبة مكاناً لما سيقوله. ولم يكن ما قاله جديداً عليها ولكن كريس في هذه المرة كان أعنف، وأقسى فارتجفت داخلياً واحتاجت إلى قوة إرادتها لتحول بينها وبين انهمار الدموع بسبب قسوة كلماته وخشونتها.

أخيراً أصبح ما يقوله فوق طاقتها، فرفعت رأسها، تنظر بعينيها الرماديتين نظرة ألم وقالت بجفاء:

ـ لا أهتم بما تقول.. إن تلك الفتاة أصغر من أن تركب الدراجة وحدها للوصول إلى المدرسة.. إنها مجرد طفلة ولا يحق لك ان توبخني هكذا.. فأنا...

ـ وما شأنك أنت إن كانت كبيرة أم صغيرة، ثم لماذا لا أوبخك؟ أنت قادرة على استفزاز نبي أو قديس.

ـ لماذا توبخني؟ لم يحدث أن وبخني أبي يوماً؟

ـ لم يكن أبوك يوبخ أحداً... ومن المؤسف أنه لم يستنك في القاعدة.

أحست بشفتيها ترتجفان:

ـ بم أخطأت؟ وهل كان خطئي جسيماً فعلاً؟ كان ما جرى اليوم حادثة منكودة. فلولا نسيان الطفلة طعامها في المنزل لما حدث شيء من هذا القبيل. وأنا ما زلت أفكر...

ـ المشكلة إنك لا تفكرين ترايسي ولهذا تزجين نفسك في مشاكل لا حصر لها. لقد سئمت من أن أكون ملاكك الحارس.. فأنت لا تحتاجين إلى أب! بل إلى زوج يشغلك في الفراش وخارجه، ويجعلك تنجبين الأولاد ليرضي غرائز الأمومة عندك وعندها فقط لن تجدي وقتاً تنفقينه على كلاب الناس وجيادهم وأولادهم.

فغرت فاها ولكنه لم يكن قد أنهى حديثه، فقد ابتسم بغير لطف أمام تعابيرها وصدمتها وقال بخشونة:

ـ وعندها سننعم جميعاً ببعض الهدوء، وهذا ما ينقصنا في الوقت الحاضر بسببك.

صاحت غاضبة، تمسح الدموع التي تساقطت:

ـ أوه! أنا.. حسناً. من الأفضل أن أفعل شيئاً بهذا الخصوص.

وارتدت على عقبيها، تنتزع يدها من اليد التي مدها ليحول بينها وبين الخروج ولكنها هرعت إلى الخارج لا تلوي على شيء.

أكرهه.. أكرهه.. كانت تكرر هذا الكلمات عندما ركبت سيارتها الصغيرة، وقادتها بجنون كادت معه لا تتجنب أحد أعمدة المدخل، همست بسخط:

ـ كيف استطاع أن يقول لي ذلك؟ كيف استطاع؟

طوت بضع أميال قبل أن تقف مفكرة في ما تفعل ثم لم تلبث أن حوّلت مسير السيارة إلى منزل السيد نيوتن وزوجته.

حين وصلت، لم تجد أحداً في المنزل وحمدت الله... على ذلك لأن عدم وجودهما منحها بعض الوقت لاسترداد جأشها، وتنظيف وجهها.. وفيما كانت في غرفة الجلوس بانتظار آل نيوتن فكرت في أنهما لن يمانعا أبداً في أن تستخدم المفتاح الذي يتركانه عادة تحت أحد أوعية النبات على الشرفة.

حين عاد السيد نيوتن وزوجته أخيراً، وجدت من المستحيل أن تخوض فيما بدا لها الآن مجرد وهم لا منطق له.

بقيت معهما حتى شعرت بالهدوء وعندما بلغت الساعة الخامسة، فكرت أنها قد استعادت عافيتها لتقفل راجعة إلى الكوخ ولكنها لم تستطع تصور ردة فعل كريس حين سيراها ثانية.

ولم يكن لديها دليل على أن هذا اليوم الكارثة قد انتهى...

* * *

٤ ـ هل تقبلين هذا الرجل؟

كانت في منتصف الطريق عندما تداعت سيارتها وتوقف المحرك عن الحركة كالميت، نظرت ترايسي إلى عداد الوقود بقلب واجف وعرفت فوراً سبب توقف السيارة. . كانت ستملأ الخزان هذا الصباح، ولكنها في خضم ما حدث، نسيت.

والأنكى أنها سلكت طريقاً مهجوراً. ماذا تفعل الآن؟ فهي وإن إستطاعت الحصول على سيارة أو دراجة نارية تقلها إلى أقرب محطة فهي لا تملك النقود.

ألقت رأسها فوق المقود متأوهة:

ـ أوه. . . لا! ماذا سأفعل الآن؟ سأسير ولكن أمامي ميلين على الأقل حتى أصل إلى أقرب منزل أستطيع استخدام هاتفه و. . .

لكن المصيبة ستكون أعظم وأجل عندما ستضطر لشرح هذه الحادثة السخيفة لكريس وهذا ما لا تطيقه.

ثم قفزت مذعورة عندما سمعت صوتاً رهيباً فأطلت برأسها إلى الخارج فإذا السماء ملبدة بغيوم ضخمة دكناء، تنذر بعاصفة شريرة، أغمضت عينيها واسندت رأسها بتعب وهي تشعر بعجز كامل شامل، وكأن أثقال العالم كله تضغط على كاهلها.

بقيت هكذا فترة تصغي إلى الرعد، ثم فتحت الباب وخطت إلى الخارج، ولكنها سرعان ما قفزت إلى الوراء عند مرور سيارة مسرعة، توقفت فجأة مصدرة صريراً مزعجاً ثم عادت إليها.

كانت مرسيدس قد سبق أن شاهدتها وأمام عينيها المذهولتين توقفت السيارة، وخرج منها دان رانكين، قائلاً بابتسامة:

ـ ترايسي. . يا للصدفة! ما الخطب؟

ـ أنا. . لقد نفذ وقود السيارة. . فهل. . فهل تحمل معك وعاء وقطعة خرطوم لأستطيع سحب القليل من خزانك؟ وسأدفع لك. . .

ـ أخشى أنه ليس لدي مطلبك. ولكن لا تخافي سأقلك إلى المنزل.

ـ أوه. . لا يمكنني أن أطلب منك هذا الطلب. أنت ذاهب في الاتجاه المعاكس. . . ولكن يمكنك أن تقلني إلى مكان ما على طريقك لاتصل. . .

واضطرت لرفع صوتها عندما بدأت أولى بوادر الريح بالصفير وأولى قطرات المباء بالانهمار.

ـ ترايسي. . انها عاصفة هوجاء ولا أظنك ترغبين في أن تكوني في خضمها. وعلى ما يبدو أنت مضطرة لقبول عرضي.

ـ لكن، ماذا عن السيارة؟

ـ هناك شيء واحد أكيد وهو أنه لن يستطيع أحد قيادتها. هل حذرك أحد مؤخراً من قبول دعوات الغرباء لتوصيلك؟ أنا لست غريباً. . . صحيح؟

ـ لا. . . لا. . أعني. . .

ابتسم.

ـ إذن، ثمة من حذرك مني شخصياً. . فهل تتصورين أنني أقدم على خطفك لأحملك إلى قصري حيث فيه مصير اسوأ من الموت!

كان يتكلم بهدوء، مع أن المطر ثقل والريح اشتدت. . فقالت بغضب:

ـ أنا لا أتصور شيئاً من هذا القبيل.

أيقظت كلماته الخوف الهاجع الذي كانت تشعر به نحوه ولكنها في الوقت ذاته بددت مخاوفها السخيفة تلك.

عضت شفتها، وتورد لونها، وأحست بالغباء خاصة عندما قال لها:

ـ نحن نتبلل ترايسي. . .

ـ اوه. . أجل. . حسناً شكراً لك. أعتقد أنها فكرة جيدة.

ـ لا شكر على واجب.

لكن كان في عينيه تلك التسلية التي شاهدتها في عيني كريس من قبل... فقبلت وصعدت إلى المرسيدس.

تمتم دان وهو ينطلق بالسيارة:

ـ بالمناسبة كان رئيسك يبحث عنك في وقت مبكر.

تطلعت إليه بعصبية، فابتسم لها قائلاً:

ـ آه، خلتك تتنصلين من العمل ولكنني على ما يبدو أخطأت.

ـ أتنصّل..؟

ـ نعم، بدون أن تطلبي إذناً. فلم يكن كريس في مزاج جيد عندما كان يبحث عنك.

استوعبت هذا بصمت، ولم تستطع كبح ارتجافها..

تابع دان يسأل بطريقة عفوية: «هل وقع بينكما شجار؟».

ـ نعم، يمكنك أن تقول ذلك.

ـ أتريدين اخباري بالأمر؟

وانفتحت أبواب السماء، فتساقط المطر وكأنه شلال متماسك، جعل الرؤية معدومة فردت ترايسي بصوت ضعيف:

ـ لا.. شكراً لك.. كانت الغلطة غلطتي..

تلاشى صوتها، وما أرعبها أن دمعتين كبيرتين انسلتا من بين أهدابها المرتعشة.. فسارع دان يوقف السيارة جانباً: «يا طفلتي العزيزة».

انتفضت ترايسي واستدارت إليه قلقة: «ماذا تفعل؟».

ـ لا أستطيع أن أقود في مثل هذه العاصفة.. سأكون كمن يدعو الحوادث إليه عمداً ولكن سرعان ما ستمر، فهذه العواصف الغيمية لا تدوم.. اضيفي إلى هذا أننا لا نبعد سوى ميل عن المنزل، وفي هذه الأثناء بإمكانك البوح بكل المشاكل التي تجثم على صدرك. فالبوح لشخص آخر بما يعتمل في صدرك مفيد، وأنا كتوم يعتمد عليه.. أكان متوحشاً معك؟ إنه هكذا أحياناً.

تحركت ترايسي في مقعدها غير مستريحة، وتمنت لو يغيّر

الموضوع. ثم قالت بلهجة هادئة وهي تحاول كبح دموعها:

ـ لا.. لكنني وضعت نفسي في موقف مربك هذا الصباح، وهذا ما جعله يساعدني للخروج منه.

ـ اخبريني بالأمر.

وأخبرته وإن على مضض، ولكن لم تذكر شيئاً مما حدث في المكتبة، فابتسم دان رانكين باشفاق، وكبح ضحكة قبل أن يقول:

ـ لا أرى مشكلة. كان يمكن أن يحدث هذا لأي كان.

استدارت إليه:

ـ هذا ما قلته! أوه.. لكن يجب أن أعترف أن مثل هذه الأمور تحدث معي دائماً. وأظن أنني.. اخطىء عادة مع الناس... وفي الواقع، أفكر أحياناً في أن أصبح راهبة.. ويبدو أن هذا الطريق هو الباقي أمامي.

ضحكت في أعماقها وهي تقول له ذلك فلم تتصور قط نفسها راهبة. وفيما كانت مبتسمة نظرت إلى رفيقها الطويل الأحمر الرأس متوقعة منه إحساساً مرحاً كإحساسها ولكنها مُنيت بصدمة عندما لم تجده ضاحكاً أو مشاركاً في رحلة خيالها الصغيرة هذه، بل كان ينظر إليها بتركيز مميت، نظرة سرعان ما عرفتها لأنها شاهدت مثلها قبل الآن، مع أنها كانت من قبل مرفقة بابتسامة... إلا أن لا مجال للخطأ فيها الآن، فحبست نفساً عميقاً.

ـ أنا...

تسللت ذراعه إلى كتفها وسأل بشفتين لا تكادان تتحركان:

ـ أنت ماذا؟ أتعرفين أن ثغرك أجمل ثغر وأنه لا يشبه أبداً ثغر راهبة؟ وسيكون من العار الصارخ رؤيتك مسجونة في دير.. فأنت خُلقت للحب، والدلال.

تضرّج وجهها بشدة فهمست: «لم أكن جادة».

تمتم: «إن لتورد وجنتيك تأثير مدّمر فيّ. والأنكى انني كنت أراقب هذا التورد من بعيد وها أنا أرى نفسي عاجز عن المقاومة لحظة أخرى».

اقترب منها ببطء يلفها بذراعه.. بعد هذا، لم تكن ترايسي واثقة من

السبب الذي حرك ذعرها. كانت تفكر حتى تلك اللحظة بأن هناك طريقة ما للتعامل مع ما يحدث، ولكن تفكيرها السليم تخلى عنها فجأة، وتركها في قبضة رعب هائل وهذا ما دفعها إلى معاملته بالطريقة التي عاملت بها كيلي هنتر منذ أسابيع. فقد أبعدت رأسها عنه، وأطلقت صفعة على وجهه دوى صداها دوياً. ولكنها ازدادت رعباً لأنها رأت أن صفعتها تلك زادت متعته فقد قال بصوت أجش منخفض:

ـ أيتها القطة الشرسة! ستدفعين ثمن هذا، وستحبين كل دقيقة. ألهذا السبب صفعتني؟

شهقت باكية:

ـ لا..! لا.. أرجوك.. دعني.. دعني أذهب!

وأخذت تتلوى بين ذراعيه بيأس.

مرر أصابعه في شعرها:

ـ ليس بعد حلوتي.. أقسم بالله أن لك روح مقدامة وهذا ما يعجبني.

وشدّها ثانية إليه، مطلقاً يداً عابثة أمسكت شعرها بطريقة أثارت احساساً حاداً بالألم.

كان يجب أن تكون هذه اللحظة مناسبة للتوقف عن المقاومة فقد استرخت مظهرة اشمئزازها ولم يكن الاشمئزاز وحده هو ما ظهر عليها بل رافقه غضب شديد جعلها تصيح به.

ـ آه، كان الجميع على حق في ما قالوه عنك! كيلي هنتر يساوي عشرة منك.

استرخت قبضته برهة، ثم قال وكأنه لا يصدق:

ـ كيلي هنتر؟

ـ أجل.

ضحك:

ـ ظننتك تحبين كريس.. في الواقع كنت واثقاً من هذا.. فقد حذرني منك، وكأنك ابنته.. لكن يجب أن أحذرك حبيبتي، بأن لا قلب لكريس، فقد فقده منذ سنوات ووضع مكانه قطعة صوان.. أما كيلي،

فهو يشبه القرد الممسوخ الذي يحاول العزف على الكمان، على حسب قول القصة.. هكذا كان يتقرب منك.. لذلك نسيت أمره.

نظرت إليه بكراهية وازدراء شديدين ولكنه ضحك ثم شدّ ذراعيه حولها.. أعقب ذلك دقائق من العنف فقد عضته وخربشته ولم تلق أي نجاح يذكر.

ثم سمعا ضربة تثير الرعب، قذفت بهما إلى الأمام ودفعت دان إلى الشتم قائلاً:

ـ لقد صدمنا أحدهم من المؤخرة...

استغلت ما حدث، ففتحت الباب في لمح البصر، وتسللت إلى الخارج وكأنها سمكة «الانقليس» على الرغم من سبابه العنيف الهادر ويده الممدودة نحوها. ثم أخذت تركض تحت المطر، ولكنها سمعت أثناء فرارها صوتاً غريباً غاضباً يستمطر غضب الله على دان رانكين...

شجعت نفسها وهي تجر قدميها على المضي قدماً رغم التعب الشديد والمطر المنهمر.

ـ إنه مبل فقط يا إلهي! كان يمكنه التغلب عليّ بسهولة في سيارته.. أرجوك يا ربي لا تجعله يلحق بي.

ثم شهقت شهقة راحة عندما شاهدت عواميد البوابة البيضاء والمصابيح المضاءة فوقها وكانت تمر بالبوابة، حين اضطرت للوقوف بسبب وخزة عنيفة في خاصرتها، ولم تع أن هناك سيارة قادمة نحوها حتى رفعت رأسها ولكنها حالما رفعت عينيها أعمت الأنوار الباهرة بصرها، وسمعت صرير الاطارات وهي تتوقف على بعد إنشات منها.

من خلال ضباب الالم الذي لفها، والمطر المنصب عليها عرفت أن من وجدها في هذه الحالة المزرية هو كريس. وكانت واثقة من ذلك حتى قبل أن يشرف عليها جسده الطويل، وقبل أن ينطق باسمها بطريقة لم تترك لها مجالاً للشك، في حالته العصبية.

وجدت، أن كل ما كانت قادرة عليه هو القعود جالسة فوق الاسفلت الرطب، ووجهها بين يديها.

* * *

قال لها كريس:

ـ والآن.. هل لك أن تشرحي ما حدث وتبرري نفسك؟

نظرت ترايسي عاجزة إلى فنجان الشاي الساخن بين يديها، ولم تستطع التفكير كيف ستبدأ حتى مع ذلك، فقد كانت هذه اللحظة مسلطة فوق رأسها طوال الساعة الأخيرة وبالتحديد منذ أن حملها كريس الذي وضعها أمام السيدة بريتونز الدهشة طالباً منها تنظيفها. وهذا ما فعلته فقد دفعتها إلى الحمام فاستحمت وارتدت ثياباً نظيفة ثم راحت تضع المطهر الأحمر على الخدوش والجروح التي اكتسبتها ترايسي من عدة مصادر، معظمها من الانزلاق فوق الارض المبللة عدة مرات.. وقالت لها السيدة وهي لا تصدق ما ترى:

ـ ولديكِ كدمات كذلك! على عنقك وكتفيك وكأنك كنت... لكن بكل تأكيد هذا غير معقول...

نظرت ترايسي إلى نفسها في المرآة لأول مرة وارتجفت. ثم ردت عليها بهدوء:

ـ أرجوك، لا تضعي المزيد من هذا الدواء عليّ.. أبدو فيه كمهرج أرقط.

ـ إن ما تحتاجينه بالفعل هو ضمادات باردة. ماذا أصابك حبيبتي؟

أنقذها من الرد وصول كريس إلى غرفة النوم المجاورة للحمام. كان يحمل فنجانين من الشاي ولكنه سارع يستغني عن السيدة بريتونز بجفاء وهذا ما أثار سخط السيدة بعد ذلك طلب من ترايسي بخشونة أن تجلس، فنظرت إلى غرفة النوم، المخصصة للضيوف، وقالت: «هنا؟».

رد ساخراً: «أجل هنا».

نظر إليها وهي ترتدي بيجاما ضخمة من بيجامات السيدة بريتونز القطنية، ثم نظر إلى عينيها.. فغاصت خوفاً في أريكة ذات مقعدين. ثم سمعته يقول:

ـ ما زلت انتظر ردك ترايسي!

كانت الكلمات هادئة ولكنها لم تشك في اللؤم المستتر وراءها فارتشفت قليلاً من الشاي لتهدىء أعصابها، وقالت مترددة: «قمت بعمل أحمق».

قال ساخراً:

ـ أدهشتني.

وقف أمام النافذة فتأملت ثيابه التي ارتداها منذ قليل، ثم نظرت إلى شعره الكث الأسود الذي ما يزال رطباً. بدا لها طويلاً يثير الخوف، وجذاباً بشكل لا معقول.. عندما رفع عينيه إليها اجتاح وجنتيها احمرار شديد وعقلها ارتباك رهيب.. كيف لي وأنا أكرهه وأخافه أن أشعر بالمشاعر ذاتها نحوه دائماً؟ كيف لي أن أحس بالعذاب حين أكون قربه، خاصة بعدما تفوّه به هذا الصباح؟ لكن هل أحاول إخفاء مشاعري؟ ربما لا.. فما دام دان رانكين قد استطاع ملاحظة هذه المشاعر...

آه، يا الله! وانتزعت نظرها عنه.. هل هذا عدل، خاصة حين أفكر في مدى سيطرتي على كيلي.

ـ ترايسي... انظري إليّ.

قطع صوته عليها أفكارها، فابتلعت ريقها وأجبرت نفسها على رفع بصرها إليه.. فقال:

ـ والآن.. هلا أخبرتني كيف وصل بك الأمر إلى أن تكوني عرضة لحادثة وضحية لاغتصاب في آن واحد. ابدئي من البداية، وهذا حسب ظني، بعد مغادرتك منزل السيد نيوتن.

اتسعت عيناها دهشة: «وكيف عرفت؟».

ـ عندما تواريت عن الأنظار طوال النهار، بدا لي أخيراً أنه المكان الوحيد الذي قصدته. اتصلت بهما فقالا إنك خرجت منذ مدة وتوقعا أن تكوني قد تخطيت العاصفة، وهذا ما لم يحصل، لذلك خرجت أبحث عنك.

وتساءلت بحزن مرة أخرى عن أسوأ ما منيت به أهو وقوعها بين

براثن دان رانكين؟ على أي حال، انه صديق وشريك.

ـ أين السيارة الآن؟

ـ أوه.. لم يحصل الحادث في سيارتك!

ـ تابعي ترايسي!

سحبت نفساً عميقاً، بعدما أدركت أن لا خيار امامها، فأخبرته كل شيء تقريباً، حين أنهت كلامها كان هناك صمت متوتر، أنهاه بسؤال بارد:

ـ قبلت من غريب أن يوصلك؟ كنت أظنك أكثر حكمة.

ـ لم يكن.. حسناً.. أعني لم أكن أعرف ما أفعل...!

ـ كان يمكنك المسير حتى أقرب منزل والاتصال بي.

ردت تدافع عن نفسها:

ـ لم يكن أقرب منزل قريباً كما تظن.. أضف إلى هذا أن السماء كانت توشك أن تصب جام غضبها.. ثم، بعدما قلته لي صباح اليوم، أصبح طلب المساعدة منك آخر ما قد أرغب فيه.. اسمع أنا متعبة، وما زال عليّ أن أعيد سيارتك إلى هنا.. هلا أجلنا حديثنا؟ أعترف أنني مذنبة في كل شيء فهل استرحت؟.. أنا حمقاء ولكنني رغم إقحام نفسي في المشاكل أستطيع الخروج منها إنما مع بعض العون من الله!

برقت عيناه غضباً، واستقام في وقفته ثم تقدم منها فاضطرت إلى التراجع والجلوس من جديد.. قال بصوت ملؤه الاحتقار:

ـ لن تذهبي إلى أي مكان، فليس الأمر بهذه البساطة.

تمتمت: «ماذا... ماذا تعني؟».

منعت نفسها بقدرة قادر من التقوقع في المقعد، شدّ فمه حتى أصبح خطاً أبيض ونظر بحدة إلى شفتها التي تعضها خوفاً، ثم أجبر نفسه على الاسترخاء قليلاً، وجذب كرسياً آخر ليجلس قبالتها.

ـ أولاً تقولين بفخر إنك تخرجين نفسك من المشاكل ولكن فتاة أخرى قد لا تكون محظوظة في يوم من الأيام... وهذا يعني، أن لا خيار أمامنا سوى أن نخبر الشرطة. ولا شك في أنك قادرة على التعرّف إلى نوع

تلك السيارة، وتفاصيل وجه.. مهاجمك.

فتحت ثغرها وقالت بارتباك:

ـ أوه.. لكن.. أعني.. ما أعنيه.. أظنني مسؤولة جزئياً عما حدث.

ـ كيف؟

ابتلعت ريقها:

ـ حسناً.. لا أظنه كان يريد سوى العناق.. لكن.. أصابني الذعر.

ـ أيعني هذا أنك تظنين أنه يحق لمطلق غريب أن يعانقك؟

ـ لا.. طبعاً لا.. لكن..

ـ وما الإلهام الذي أوحى إليك بأنه لم يبغي سوى العناق.

ـ لا ادري.

وهبّت واقفة ولكنه كان أسرع منها فأمسك بذراعها وقال بصوت مهدد:

ـ أخبريني ترايسي.. لماذا تحاولين حماية من فعل بك هذا؟

صاحت وهي تكاد تبلغ ذروة التحمل.

ـ ليس الأمر هكذا.. ليس كما تظن على أي حال.. لكن.. لكن..

لمع نور الفهم في عينيه، وقاطعها بخشونة:

ـ إنه شخص تعرفينه. أليس كذلك؟

ردت متهورة: «آه، أجل».

وارتجفت حين رفعت نظرها إليه فرأته ينظر إليها وكأنه لا يراها، ثم تمتم:

ـ أكان دان رانكين؟ كان يجب أن أعرف. أنت حمقاء أكثر مما ظننت ترايسي.. ألا تعلمين أنه يرغب فيك منذ اسابيع؟

ـ أنا.. لم أكن أعرف في ما أفكر أو في ما أفعل. كنت في ورطة.. ألا ترى.. و... ولولا تصرفك المرعب هذا الصباح لما وقعت في هذه الورطة أصلاً، ولما كنت تفوهت بتلك الكلمات التي أثارت غريزته وهي كلمات ذكرت فيها أنني أرغب في أن أصبح «راهبة».

وتجمعت دموع البؤس والارتباك في عينيها.

ضحك إنما بدون مرح:

- راهبة؟ انها غلطتي الآن.. صحيح؟ إذن، يجب أن نفعل شيئاً.. أليس كذلك؟ ستتأكد من عدم وقوعك في ورطة بسبب أشخاص آخرين. ولأنني أكره أن أحمل ضميري وزرك سأقوم بهذا الأمر. واعلمي أنك ما إن تعتادي على الفكرة حتى تجدينها غير غريبة عنك.. على أي حال.

- أنا.. ليس لي ادنى فكرة عما تتكلم.

احتوتها ذراعاه وسألها مبتسماً:

- أليس لديك فكرة؟ عجباً.. أتكلم عن زواجنا.. عزيزتي ساعتئذ على الأقل، سأتمكن من حمايتك من نفسك ومن العالم البشع الكبير الذي تجدين صعوبة في التعامل معه وستتمكنين من إنجاب أطفال ترضين بهم حاجة قلبك.

خرجت من جمودها لتقول بسخط.

- توقف عن هذا.. لا تقل هذا.. لست.. لست جاداً.

- ولماذا لا أكون جاداً؟ يرى بعض الناس أن هذا سبب وجيه للزواج.

سحبت نفساً عميقاً، وحاولت التفكير، ثم قالت:

- أنا لست أحد أولئك الناس.. فأنا أؤمن بالحب.

ابتسم، ورفع يده إلى مؤخرة عنقها بلطف:

- لن تتعرفي إليه، حتى ولو وقع على قمة رأسك.. مثلاً: لماذا تظنين أنني عانقتك في بستان الليمون؟ أكان عناقي من أجلك فقط؟

تصاعدت موجة مؤلمة حارة من الاحمرار من عنقها إلى وجهها فغضت طرفها عنه وحاولت الخلاص من بين ذراعيه بحركات خرقاء لكنه قاومها:

- أنظري إلي..

- لا.. لا أستطيع.. ولا أستطيع الزواج بك كذلك. شكراً على أي حال، ولكنني لن أستطيع.

- على أي حال ستتزوجينني عزيزتي.

- كريس..

تنفست بيأس ثم راحت تجهش بالبكاء فانهمرت الدموع حارة وعجزت عن السيطرة عليها كما لم تستطع منع جسدها عن الارتجاف، من ردة الفعل والأحاسيس.

رفع يديه ببطء يمسك بوجهها، ويمسح دموعها بأصابعه، ثم وجدت نفسها تتكيء عليه وتبكي على كتفه تحاول في الوقت نفسه الاعتذار عن غبائها. عندما ضمها إليه شعرت بالامان والدفء يتسلل إليها حتى هدأت أخيراً ونظرت إليه بعينين دعجاوين مغرورقتين بالدموع والدهشة.. ثم تنهدت تنهيدة عميقة وتركت نفسها تسترخي كل الاسترخاء.

* * *

- ترايسي بابرة...

ادارت ترايسي رأسها ورفرفت عينيها فقد أدركت انها هي من لفظ اسمها أثناء الحلم.

كانت الغرفة غارقة بنور الشمس وكانت الريح تفتح الستائر وتدفعها إلى الداخل حاملة معها أريج الليمون وعبير الأرض الرطبة.. فاستلقت بهدوء تعرف أن الشمس الحارة ستبخر المياه التي انهمرت ليل أمس.

ثم تساءلت كم الساعة، وفكرت أن الوقت متأخر، وتساءلت لماذا تحس بهذا الشعور الذي صعب عليها للوهلة الأولى وصفه ثم تذكرت انها استيقظت واسمها على فمها، فعبست، وأسرعت تستوي جالسة لأنها تذكرت ما كانت تحلم به وما كانت تقوله في منامها: ترايسي بابرة تشسترتون أتقبلين بهذا الرجل...

عادت أحداث الليلة الماضية تبرز امامها، فاحمر وجهها. يا إلهي! ماذا فعلت؟ عادت تستلقي فوق الوسادة ووجهها يكاد يحترق ويداها ترتجفان فقد تذكرت موافقتها على الزواج وانتحابها على صدرها.

- لكن كيف أتزوجه؟ لا يمكنه أن يكون راغباً حقاً في الزواج بي. إنه يريد فقط.. آه يا الله!

فيما كانت تهبط درجات السلم قالت لها السيدة بريتونز.

ـ آه.. هذا أنت ترايسي.. طلب مني كريس أن أتركك نائمة، ولكنني تركت لك بعض الطعام للفطور.. حسناً تبدين الآن أفضل حالاً حبيبتي.. ما أعجب ما يفعله النوم بالجسد!

أبعدت ترايسي وجهها وقلبها خافق ثم قالت:

ـ لا أرغب في الفطور.. شكراً لك سيدة بريتونز.

ـ فنجان قهوة اذن.. أنا لا أحب الفطور أيضاً اسمعي احملي فنجان القهوة إلى المكتبة، فكريس يريد رؤيتك.

ابتلعت ترايسي ريقها بصعوبة وشدت قبضتيها.

كانت نوافذ المكتبة مفتوحة على مصراعيها، فبان المنظر خارجاً مغلفاً ببخار من الحرارة، رفع كريس رأسه ينظر إليها وهي واقفة عند الباب قلقة حاملة في كلتا يديها فنجاناً من القهوة التي يتصاعد البخار منها، تسللت ابتسامة كسول إلى عينيه.. وجعلها الارتباك تشيح بوجهها عنه عاجزة تتساءل كيف لها أن تشعر بهذا الارتباك، والخجل، بعد موافقتها على الزواج به.

وقف متكاسلاً ودار حول المكتب لينقذ فنجاني القهوة من الأنامل المرتعشة.

ـ صباح الخير أيتها السيدة غاليهار العتيدة.. تبدين أفضل حالاً هذا الصباح.

تنفست نفساً عميقاً بسرعة: «كريس...».

رفع حاجبيه متسائلاً ولكن كان فيهما بريق الضحك، فأحست إحساساً غريباً بأنه يعرف تماماً ما جاءت تقوله وان لا طائل مما ستقوله.

ولكن يجب أن أتحدث يجب أن أدفعه إلى التعقل، رفعت كتفيها، وتحركت مبتعدة عنه، تقول بجفاء:

ـ لا أستطيع الزواج بك كريس، وأظن أن من الأفضل ان أرحل الآن.

ـ الأفضل لمن؟

عبست، تحذر نفسها، ثم فكرت في أن رحيلها أفضل بالنسبة له.

فاستدارت إليه تواجهه:

ـ الأفضل لكلينا.. اسمع.. كنت أفكر منذ استيقظت.. قلت لي مرة إن طباعك رهيبة، وأظنها شبيهة بطباع أبي أظنك كنت البارحة غاضباً لأنني مصدر إزعاج لك، وهذا ما كان يقوله أبي أيضاً حين يكون المرء في ذروة الغضب يقول أقوالاً يندم عليها فيما بعد..

هجرها النطق فجأة فقد رأته ينظر إليها مفكراً وكأن شيئاً يدعو للسخرية قد ظهر له، ولكن كان كل ما قاله: هيا أكملي.

ابتسمت بخجل، ثم تنهدت:

ـ حسناً.. أظن أن الأمر سخيف.. نظرت إلى نفسي في المرآة هذا الصباح فلما رأيت الكدمات أحسست أنني أبدو امرأة ناضجة ولكنني في الواقع أنا.. أعني أنك تظنني...

قاطعها:

ـ ترايسي.. لننظر إلى الناحية التقنية فقط، أنت امرأة ناضجة وليس لديك خيار سوى الزواج بي.

صاحت:

ـ بل لدي خيار آخر فلا أظنك تجبرني، آه.

أحست بالدموع تترقرق في مآقيها، فامسك يدها يقبل راحتها، ثم لف أصابعه حولها.

ـ ولكنك تريدين أن يتم هذا الزواج؟

تدفقت الدموع إلى وجهها وساد صمت قطعته بقولها:

ـ أجل، أريد هذا. وكنت أفكر بك، ولكن الفتيات يعانين من هذه الأفكار....

ـ ليس الفتيات فقط.

ـ ولكنك حتى ليلة أمس، لم تظهر ما يدل على أنني لست سوى طفلة مثيرة للإزعاج، وما أعرفه انك تريد أن تتزوجني بسبب.. ما حدث.. وهذا لا يساعدني أبداً على اتخاذ قراري.

انتفضت حين قال لها باهتمام بارد:

- وهل ستصدقيني لو قلت لك إنني أحبك ترايسي؟
- أنا.. لا! وهذا ما أحاول قوله لك!
- إذن.. أتظنين أننا قادران على أن يتعلم كل منا كيف يحب الآخر.
فتحت شفتيها، وأسرت عيناه عينيها، وكأنه قادر على ان يرى روحها.
قال لها:
- ترايسي أنت تدهشينني! ظننتك لا تستطيعين مقاومة التحدي، وظننتك لن تمانعي في ان يتعلم كل منا أن يحب الآخر. كما أن هذا الأمر ذو اتجاهين.
- كيف؟
- قلت بنفسك إنك مصدر إزعاج لي.. لكن يجب أن تعترفي أنني غالباً ما أغضبك.
- أجل.. لكن لا أرى...
- ربما سيعلم أحدنا الآخر.. لديك ميزات تعجبني كثيراً.
- صحيح؟
ابتسم لها:
- أجل.. وليس أقلها صراحتك المؤلمة.. على فكرة حين تتعلمين أكثر ستفهمين أنه ليس لديك خيار آخر. فلا تعذبي نفسك أكثر من هذا.
طال بها الوقت لتستجمع أفكارها، ولتقول:
- لكن لدي الخيار... أليس كذلك؟
- لا.
همست يائسة بعناد: «بلى».
- لا.
مرر أصبعه على ثغرها ثم أردف:
- ثمة أمر لم تأخذيه بعين الاعتبار وألا هو أنني ربما كنت أحبك.
اجفلت بعنف، وارتسم شبح ابتسامة على وجهها ولعقت شفتيها تبتلع ريقها بصعوبة:

- فكرت في ذلك ولكنني وجدته مستحيلاً.
بدا عليه التعقل فجأة، ثم قال بهدوء ورصانة:
- ترايسي ألا ترين أنني أشعر بالسعادة لأنني سأتزوجك كما أشعر بأنني سأنتظر بفارغ الصبر رؤية أطفالنا.
وحدقت إليه مذهولة.

* * *

٥ ـ السيدة ماما والأسد

تزوجا بعد عشرة أيام.

كان احتفالاً خاصاً.. فمن الأسهل، كما قال كريس مبتسماً أن يواجه الجميع بالأمر الواقع. ووجدت ترايسي نفسها توافقه.

قررا التوجه إلى منزل السيدة نيوتن ليخبراها وكان كريس من قام بشرح الأمر للسيد نيوتن قائلاً إنه وترايسي اتفقا على الزواج. وقائلاً أيضاً بينما كانت يد ترايسي ترتجف في يده، إن لا سبب يدعو لتأخير الزفاف، فهما يعرفان بعضهما منذ ستة أشهر.

بدا السيد تيو مذهولاً مرتبكاً، إلا أنه حين استدار إلى ترايسي ليتأكد، احمرت برقة، وقالت له:

ـ أعرف أن هذا مفاجأة لك. ولكن، هذا ما أريده.

أقنع السيد نيوتن كريس أن يترك ترايسي في منزله لتنتظر قدوم السيدة نيوتن الغائبة، فتزف لها عندئذ الخبر بنفسها. ثم قال بعد مغادرة كريس:

ـ والآن ترايسي.. يجب أن أعترف أنك طالما أربكتني! هل أنت واثقة مما ستقدمين عليه؟

ردت بهدوء أدهشه كما أدهشها:

ـ أجل.

ولكن ربما لم يكن مدهشاً إلى هذا الحد فهي في اليومين الماضيين ناقشت كل شيء مع نفسها آلاف المرات وفي كل مرة كانت تخرج بأجوبة مدهشة. مثلاً: اكتشفت أن أملاً صغيراً رقيقاً قد استيقظ في قلبها، أملاً بأنها يوماً ما ستجعل كريس ينسى لينورا سنكلير.. ثم كان هناك مسألة إنجاب الأولاد ولكنها رفضت فكرة أن يكون الهدف من الزواج إنجاب

الأطفال لأن ذلك سيجعل الأطفال كبش محرقة.

وكان هناك الأوجه التي لم تكن عجيبة في الموضوع، وهي واقع حبها لكريس الذي لن يغيره شيء.

ومما توصلت إليه أثناء مناقشة ذاتها أنها لن تندم أبداً على الزواج ولهذا السبب بالذات لم تجادله بشأن الزواج حين قال لها كريس إنه يريد اطلاع السيد تيو على موضوع زواجهما.

شعرت بعد أن أخبرت السيد تيو بالأمر بأن حملاً ثقيلاً نزل على كاهلها.

سمعت تيو نيوتن يقول:

ـ سامحيني عزيزتي.. أنا أعتبرك الابنة التي لم أرزق بها ولذلك أشعر بأن علينا أن نتحدث قليلاً. ففي بعض الأحيان تخوننا مشاعرنا ونقع في جاذبية جسدية نظنها الحب.. فهل فكرت في هذا الأمر؟

فكرت ترايسي قليلاً، ثم قالت:

ـ لكن، أيُمكن للمرء الفصل بين الجاذبيتين؟ كما أنني بعد أشهر اكتشفت أن كريس يجعلني غاضبة أحياناً وحزينة أخرى ولكن لم يحدث أن فعل ما أفقدني الثقة به أو جعلني لا أرغب في أن أكون معه.. أنا.. أنا.. أحبه كثيراً.

ـ لكنه.. أكبر منك بكثير، ترايسي.

ـ أعرف.. ولعل ذلك خير لي، فأنا لا أحب الشبان الصغار.. ألا يعجبك؟

ـ في الواقع.. يعجبني. لكنني أشعر بأنني يجب أن أشير إليك أن الزواج لم يكن قط فراشاً من ورود.. وفارق السن قد يصعب من الوضع.

ذعرت ترايسي داخلياً ولكنها قالت بثبات:

ـ أعرف أننا في أوقات معينة سنجد صعوبة في حل بعض المسائل، كما أعرف أنني سأكون مصدر إزعاج للجميع. ولكنني مع كريس أشعر بالأمان.

ـ ترايسي..

تردد قليلاً ثم أكمل:

ـ لا تنظري إلى نفسك بازدراء. فإن كنت تحبينه حقاً، فكوني فخورة بحبك.. فعلى المتحابين أن يكونا متساويين.. فهل أنت قلقة من ألا تكوني.. كيف أقول هذا.. من ألا تكوني متساوية معه في بعض الأوجه؟

نظرت إلى يديها طويلاً، ثم اعترفت:

ـ أحياناً.. وأظن أن عليّ أن أنضج بسرعة في بعض الأمور.. وأعلم أنني لن أندم أبداً على الزواج به.

صمت السيد تيو ثم قال:

ـ هل أنت واثقة من هذا؟

ـ أجل.

ـ إذن أقدم لك تهانيّ الحارة.

حين عاد كريس ليصطحبها نظر إليها متسائلاً فقالت له وهما في السيارة:

ـ اطمئن، لم أغير رأيي.

ـ وهل حاول إقناعك بتغيير رأيك؟

ـ لا..

ـ وهل شعرت بأنك تخدعينه؟

صمتت، فأمسك بيدها التي وضعها على المقود مع يده:

ـ ثقي بي.. ترايسي.

تلك الليلة، مدت السيدة نيوتن يدها تضيء نور المصباح القريب من السرير عندما سمعت زوجها يتمتم:

ـ ولكنني رغم هذا كله ما زلت لا أعرف..

وسألته: «لا تعرف ماذا يا عزيزي؟».

لقد علمتها سنوات من الخبرة ألا تحاول دفع زوجها إلى النوم إذا كان مشغول البال بشأن أمر ما لأنه من المستحيل عليها أيضاً أن تنام قبل أن يفضي بكل ما في صدره.

ـ لا أعرف أموراً كثيرة عن كريس غاليهار، أعني أنه يعجبني حقاً..

لكن..

ـ قلت لي مرة إنه يعجبك كثيراً.

ـ هذا قبل أن أعرف أنه يريد الزواج بترايسي!

ـ وأين الفرق في ذلك؟ فأنت بكل تأكيد لا ترغب في أن تتزوج ترايس ممن لا يعجبك.

ـ بالطبع لن أرغب في هذا! لكنني لا أعرف ما إذا كان الشخص المناسب لها!

ـ ألأنه أكبر منها سناً؟ لو سألتني لقلت إن هذا بالضبط ما تحتاجه ترايسي.

ـ وهذا ما تظنه ترايسي أيضاً!

ـ لا تسخر مني تيو. إنّ الآباء جميعهم يواجهون المشكلة نفسها.

ـ أنا لست..

ـ أظنك تعتبر نفسك أباً، ولو بالتكليف. ومن المعروف أن الآباء لا يجدون أن هناك من هو مناسب لبناتهم..

ـ ما كنت لأناقشك في هذا الموضوع لو عرفت أنك ستكونين لئيمة إلى هذا الحد.

ـ أنا؟ أنا لئيمة؟!

وضحكت:

ـ لا بأس عليك، سأتركك لتعود إلى النوم..

واستدارت، فصاح بها ضاحكاً:

ـ آه، عزيزتي أنا آسف، لكنني لا أستطيع منع نفسي من الاهتمام والقلق.. أعني، إن ما حدث كان مفاجأة لي!

ـ ولكنني أعترف بأنه لم يكن مفاجأة لي.

التفت إليها وهو لا يصدق ما سمعه: «هل أخبرتك ترايسي شيئاً؟».

ـ لا.. لكن المرء يستشف بعض الأمور من خلال حديث الشخص الآخر.

ـ ولماذا لم ألاحظ شيئاً! حسناً.. لا تقولي شيئاً؟ أظنني مجرد رجل

لا يلاحظ شيئاً. . أما أنت فلا. . ألست قلقة بشأن هذا الزواج مثلي؟

تأخرت السيدة نيوتن في الرد، ثم قالت:

ـ تيو. . لا أحد يعرف حقيقة ما يجري بين رجل وامرأة. لذلك لا أستطيع القول إن هذا الزواج مثالي. . الزمن وحده قادر على أن يكشف ذلك. لكنني أحب وأحترم كريس غاليهار، وأنا أشعر بأن ترايسي بين أيد أمينة. . مع أنني لا أشك أبداً في أخلاقها، بل الواقع أنني أحس أنها ضعيفة أمام ضميرها، أترى هذا. . لا تطلب مني شرحاً لأنني لن أستطيع! فهذا ما أحس به فقط. لذلك أنا سعيدة في زواجها من كريس فهي بأمس الحاجة إلى مرفأ أمان.

فكر تيو طويلاً، ثم قال:

ـ وهل هو المرفأ المناسب لها بحسب رأيك؟

ـ أظنه رأى نفسه ملاذها الآمن وإلا لما رغب في الزواج بها. إنه ليس بأحمق أو صغير.

ـ أتظنين. . أعني، أتذكرين متى وقعنا في الحب؟ أتظنين أن الأمر مشابه لهما؟ فها نحن ما زلنا متحابين رغم مضي كل تلك السنوات؟

رق صوت السيدة نيوتن.

ـ لا أدري. . ستكون فتاة محظوظة إن كانا متحابين مثلنا، أنا مضطرة لتحمل الكثير. .

ونظرت نظرة ذات دلالة إلى الساعة الصغيرة القابعة قرب السرير، فسارع تيو يقول:

ـ ما رأيك لو أحضّر لك فنجان شاي؟ وهل سيعوض ذلك عن بعض الأمور التي تضطرين إلى تحملها؟

ـ ربما. . هذا ممكن.

***

في الأيام التي سبقت حفل الزفاف، تابعت ترايسي حياتها كالسابق. . أولاً لأن كريس كان مشغولاً بتنظيم أمور شهر العسل المفاجىء مع أن ترايسي لم تعرف المكان الذي قرر قضاء شهر العسل فيه.

لم يلحظ أحد أي تغيير في حياة ترايسي إلا لولا التي قالت لها إنها تبدو مشغولة البال. . فأحست ترايسي بالذنب ولكنها لم تستطع شرح الأمر لها لأن شرح الموقف بدا لها أمراً طبيعياً.

وجدت نفسها بسبب العجلة في ترتيب الأمور لا ترى كريس كثيراً ولعلها غالباً ما كانت تراه حين تعمل معه. وكانت مسرورة بهذا فقد اكتشفت أن اتخاذ القرار والدفاع عنه في نفسها أمر، ومواجهة زوجها العنيد الواثق من نفسه أمر آخر. . في الواقع كانت متأرجحة بين الذعر وبين الإحساس باللاواقعية فهي لا تصدق أن هذا يحدث لترايسي تشسترتون.

والأسوأ من كل هذا، أن محنتها المعنوية كانت تظهر عليها كما حدث في تلك المناسبة عندما كان كريس يملي عليها في مكتبه رسالة وتوقف فجأة عن الكلام، وأدار كرسيه نحو النافذة. . فانتظرت بصبر وقلمها جاهز ولكنه استدار ثانية وقال:

ـ لا أعتقد أن لديك جواز سفر؟

ـ بلى. . عندي.

ـ ساري المفعول؟

ـ أجل. . كان أبي يخطط للسفر قبل أن يموت مباشرة. . لماذا تسأل؟

نظر إليها مفكراً، ثم ابتسم:

ـ أفكر أن نستخلص جوازاً آخر باسمك الجديد. كما أعتقد أن علينا تلقيح أنفسنا في الأيام القادمة. . أتمانعين؟

ـ لا. . لكن لماذا؟

ـ حسناً. . كنت أفكر في الابتعاد عن البلاد لقضاء شهر العسل.

ـ أين؟

ـ لست واثقاً، إن الأمر منوط بأشياء عديدة والمهم أن تروق لك الفكرة أم تراك تنظرين إلى زواجنا على أنه نوع من الابتعاد عن العالم ترايسي؟

لعقت شفتيها: «لا أدري قصدك».

ـ أنت لم تطرحي سؤالاً عن شهر العسل أو عن شيء عن حياتنا.. بل لم تتفوهي بما هو جديد.

امتقع وجهها فجأة، وتساءلت لماذا تحس أنها خائفة من فكرة قضاء شهر عسل مع هذا الرجل..

ـ كنت أظن أننا سنعيش حياة بسيطة كالحياة التي نحياها الآن.. وبإمكاني الاستمرار في عملي فأنا أتمتع به حقاً.

نظر إليها بكسل، ثم قال:

ـ حسناً، في سياق بحث شهر العسل، لماذا لا تخبريني عما سترتدينه أثناء حفل الزفاف؟

ـ أنا.. أنا لم أفكر في الأمر.

وتساءلت بقلق عما سترتديه حقاً.

ـ أتحبين الذهاب للتسوق بعد الظهر؟ لشراء ثوب الزفاف؟

سرعان ما تصورت ترايسي ثوباً أبيض ناصعاً، وعضت شفتها، لتقول بارتباك:

ـ لا.. شكراً لك. لا أعتقد أن عليّ ارتداء ثوب.. أعني، ثوب زفاف حقيقي.. أليس كذلك؟

ـ لا بأس إن كنت لا تريدين ارتداءه. وإن كنت مترددة بارتداء اللون الأبيض فليس عليك ذلك لأنك بريئة طاهرة في أعماقك أكثر من أي فتاة تدعي البراءة.

ـ لا أظنني سأتمكن من هذا.

ـ إذن ارتدي ثوباً ورديا.

ـ أوافق الرأي، فهو أفضل لوناً من الأبيض.

ـ ترايسي.. لم يكن لاقتراحي مغزى.. وما كنت لأتزوجك لولا إيماني بأنك تملكين تعقلاً كافياً لارتداء ما تحبينه من ألوان للزفاف، وأنت شامخة الرأس.

نظر إليها فأسرت عيناه عينيها، ثم امتدّ بينهما شيء لم تستطع

تسميته، شيء أشبه بخيط فضي غير مرئي منحها شجاعة.

فقالت بهدوء: «حسن جداً».

ـ عظيم وستعجبينني مهما ارتديت. وبإمكانك توضيب بعض ثياب النوم لأنك لن تحتاجي إلا إليها.. على فكرة معي بعض الأوراق الرسمية عليك توقيعها، وسأحتاج إلى جواز سفرك.

فتحت فمها لترد، ولكن رنين الهاتف أصمتها، وما أن أنهى مخابرته حتى كانت قد فقدت الدافع للسؤال. فقد بدا لها أن تفكيره عاد إلى العمل ثانية.

بعد أربعة أيام، عادت إليها الحيرة من جديد.. ولكنها ساعتئذ كانت متزوجة وعلى متن الطائرة المتجهة إلى «بيرث» على شاطىء أوستراليا الغربي المطل على المحيط الهادىء، وذكرى حفل زفافها ما تزال حية في عقلها.

إنما مع بعض التشوش الغريب، كانت ذكرى أزهار الكنيسة وذكرى الشموع المضيئة رائعة. لم تحدث المراسم على عجلة وتكتم كما توقعت بل كانت رزينة، غير أنها تحولت إلى احتفال عندما دخلت جماعة من السوّاح إلى الكنيسة وجلسوا بهدوء حتى انتهت ثم توسلوا ليتصوروا مع العروسين.

زادت السيدة نيوتن على الاحتفال توزيع الشراب والحلوى والكايك المحشو بالفاكهة في غرفة الطعام الملحقة بالكنيسة...

حين أصبحت الطائرة فوق «نولابور» سألته:

ـ لماذا «بيرث»؟

مد يده إلى يدها اليسرى التي حملت الخاتم الذهبي وخاتم الخطوبة الألماسي وقال:

ـ ستعرفين لماذا.. لم أكن أعرف أنك تأكلين أظافرك.

ـ لا آكل أظافري عادة إنما أعمد إلى هذه العادة أحياناً مع أنني اعتقدت أنني تخلصت منها. يوماً ما سأتخلص منها.

ـ أيعجبك الخاتم؟

- أوه.. أجل ولا أدري كيف أشكرك.. هل عرف الجميع في المنزل؟

- أجل.. وهم يتوقعون عودتنا.. أستطيع تصور توتر المكان في هذه اللحظات.

كان الظلام قد أرخى سدوله عندما حطت الطائرة في «بيرث» عاصمة «أوستراليا الغربية». وعندما انتقلا إلى جناح في فندق فخم فكرت فجأة أن من الغرابة فعلاً أن تقطع القارة الأوسترالية وهي لا تحمل سوى ثياب النوم وجواز السفر الجديد.. أين يمكن الذهاب من «بيرث»؟

ولكن كريس لم يمهلها حتى تفكر.. فقد اتصل لحجز طاولة في مطعم، وحين قالت على عجل إن ليس لديها ما ترتديه طلب منها ألا تقلق لأنها تبدو في هذا الثوب رائعة، فأطرقت تنظر إلى نفسها وتضحك.

- ما الأمر؟

- حين اشتريت هذا الفستان فكرت أنه سيكفيني لأيام وليال كثيرة خاصة.. ولم يكن لدي فكرة أن هذا سيتحقق.

- أوه.. سنعتني بمسألة الثياب غداً. أما الآن فتعالي.. لا بد أنك جائعة، فأنت لم تأكلي شيئاً على متن الطائرة.

- أجل.. أجل.. لا شك أنني جائعة.

ولكنها كانت تشعر بأنها غير جائعة فتوترها يشتد كرفاص مشحون بأكثر من طاقته. ولكنها رغم ذلك تمكنت من التماسك ساعتين أخريين لا بل أقنعت نفسها بأن تأكل شيئاً يساعدها على جو المطعم المعتم وعلى الموسيقى الهادئة. وقد وبخت نفسها قائلة لها أنت لا تعرفين عن الأمر شيئاً ترايسي، فلماذا التوتر في ليلة الزفاف.. أهي غامضة إلى هذا الحد؟

حين عادا إلى جناحهما ذي الأنوار الخافتة وذي المنظر الرائع المطل على سماء بيرث، جف لسانها كما يجف الينبوع الصغير في صحراء واسعة، ووقفت وسط الصالون، تلوي يديها بقلق.

تقدم نحوها يحمل كأسين من العصير المثلج: «ما بك؟».

تمتمت: «لا، لا أدري».

واحمر وجهها بشدة تحت نظرته الممعنة، ثم قالت:

- أرجوك.. لا تظن أنك مضطر.. لـ.. أعني..

تحركت شفتاه في شبه ابتسامة:

- ألا تريدين مني أن أظهر حبي لك ترايسي؟ أهذا ما تحاولين قوله؟

- لا.. نعم.. لا أدري..

استدار ليضع كوبه من يده ثم استقام، فتراجعت عن غير وعي إلى الوراء ولكنه لم يتقدم منها.. بل خلع ربطة عنقه، ووضع يديه في جيبيه ينظر إليها بتعبير غريب.

قال أخيراً بصوت عادي:

- أخبريني ترايسي.. أهذا ما تحاولين قوله؟

همست محاولة استجماع شجاعتها:

- إذا كان هذا ما تريد. لا أدري لماذا، لكنني أشعر بالخجل. وكأن الأمر غير حقيقي.. بطريقة ما.

تقدم نحوها يأخذ كوبها منها ويرفع ذقنها بيده.

- آسف لهذا.. آسف لأنك تشعرين بأن هذا غير حقيقي، أما أنا فلست آسفاً أبداً، لأنك خلابة في خجلك، على أي حال يمكننا معالجة هذا.. تعالي نجلس هناك معاً.

حملها بين يديه، وجلس على الأريكة وأجلسها قربه.

- مستريحة؟

حركت رأسها بحركة إيجاباً، فالتوت شفتاه وقال بصوت غريب لطيف:

- من المفيد دائماً أن تفعلي شيئاً بيديك في أوقات كهذه.. لذلك، عليك فيما أفك أزرار ثوبك أن تفكي أزرار قميصي! على أي حال، مجتمعنا مبني على التساوي بين الرجل والمرأة. أليس كذلك؟

ضحكت بدون أن تعرف السبب، وقالت أول ما خطر على بالها:

- النساء اليابانيات يفعلن شيئاً كهذا.

- هذا صحيح.. ولا يبدو أنهن بسبب ذلك عرضة لخطر المهانة..

ربما يفهمن هذه الأمور أكثر مما نفهمها نحن. لماذا لا نجرب؟

ردت بارتجاف:

ـ حسناً.. لا أدري لماذا أتغابى هكذا.. لم أقصد.

ـ هل تظنين لأنني لم أحاول لمسك حتى الآن أنني غير مهتم بك؟

كان طوال الوقت الذي يتحدث فيه يكمل ما يفعل، ثم تسللت يده إلى كتفيها ليعانقها فجعلتها لمسته ترتجف ووجدت نفسها غير قادرة على الرد، لأن هذا بالضبط قد يكون سبب توتر بينهما. في أعماق قلبها، تمكنت من كبح فكرة تثير البرد في أوصالها، وهي أنها وفي صدمة قبولها بالزواج به، وسعيها الوجل إلى بعض السلوان والدفء والارتياح والرفقة على صدره جعلته لا يرغب في مغازلتها.

ـ ترايسي.. أهذا ما ظننته؟ (قطع عليها أفكارها).

مرر أصابعه على جانب عنقها على البشرة الرقيقة وراء أذنها، فحركت رأسها موافقة ولكنها انتفضت حين ضحك.

ـ ليس السبب عدم اهتمامي بك بل اعتقادي بأنك تفضلين البقاء على عفتك حتى ليلة الزفاف.. أضف إلى هذا أنني فكرت في أن هذا الامتناع سيفيدني روحياً. ثم، هذا يعني أنه ستكون هذه الليلة أول ليلة زفاف. فأنا لم أعانقك قط كما ينبغي، أتدركين هذا؟ أترغبين في التجربة؟ أعدك ألا يكون عناقنا كالذي اختبرته معي يوماً..

نظرت إليه مذهولة، عيناها دهشتان قلقتان فقد تذكرت غزو دان رانكين الخشن العنيف. وعرفت لماذا لم يحاول كريس أن يقبلها أو يغازلها تلك الليلة.

ردت غير واثقة من قرارها: «أنا...».

لكنه أسكتها بحزم، وأحست بأصابعه تتسلل إلى شعرها فعنقها ثم جذب رأسها إليه ليقبل جفنيها فجبينها فوجنتيها وأخذت نبضات قلبها تبطىء وكأنما لمساته الناعمة تبعث إليها الهدوء.

فيما بعد، وفيما بدا أنه دهر، رفع رأسه ينظر إليها، وابتسم لعينيها الناعستين. ففكرت باستغراب في كل مشاعرها نحو كريسبن غالبهار.

كانا وكأنهما على أرض متساوية وهي تتعلم منه، حتى تلاشى كل شيء آخر كل مخاوفها، كل قلقها.

كانت غرفة النوم مظلمة قليلاً، لا تنيرها سوى الأنوار الخارجية، والقمر المشرق الذي حول الشرفة خلف الأبواب الزجاجية إلى ملاءة فضية. وكانت أنفاسهما قد بدأت تسكن، واستلقيا أخيراً بهدوء، فاستدارت إليه تضع رأسها على كتفه لتنام.

* * *

صاحت ترايسي: «أفريقيا!».

هبَّت من فراشها ولكنها لم تلبث أن عادت إليه لتشد الغطاء الذي انزلق بسبب حركتها المفاجئة تلك.

كان يوماً براقاً مشعاً والشمس المنيرة تصب أشعتها على الشرفة. وكانت قد استيقظت منذ دقائق فقط، فوجدت أنها وحيدة في الفراش ولكنها سمعت خرير المياه الآتية من الحمام.

تمطت بكسل، وفكرت أن تعود إلى النوم ثانية لأنها تحس بنعاس وكسل غريبين، وكأن أطرافها مخدرة. ثم انقطع خرير المياه في الحمام ودلف كريس إلى الغرفة وهو لا يضع سوى منشفة على خصره. كان شعره الأسود شديد اللمعان، تتقطر منه المياه إلى كتفيه فتسمرت ترايسي وعرفت أن وجنتيها توردتا بدون أن تستطيع فعل شيء بهما.

جلس على حافة السرير ثم راحت عيناه تمازحانها بإزعاج.

لم يلبث أن وضع يديه على خصرها وطبع قبلة خفيفة على رأسها وقال:

ـ تبدين وأنت نائمة ابنة خمسة عشر عاماً ترايسي.. أتعرفين هذا؟ لقد شككت في أنني ممن تستهويهم الفتيات المراهقات...

ـ لكنني لا أشعر بأنني في الخامسة عشرة...

ابتسم وكأنه يضحك على سخرية ما، ثم قال:

ـ كيف تشعرين؟ تملكين القوة الكافية للسفر إلى أفريقيا؟

ووقف، فصاحت:

- أفريقيا؟ هل.. قلت، أفريقيا؟
ثم جلست مرة أخرى، ولكنها في هذه المرة كانت تمسك الغطاء.
رد بتكاسل:
- حسناً.. أظن أن هذا ما قلته. لكن الطريقة التي ترفعين فيها هذا الغطاء توحي إليّ بفكرة أخرى.
ردت بارتباك: «آه..».
وأخفضت الغطاء إنشين ثم أردفت:
- لكن.. أكنت.. هل أنت.. جاد؟
- جاد كل الجد. تبدين تعبة ومتزمتة وشديدة التكلف.. وهذه دعوة للتخلص من كل هذا.
قالت بأنفاس مقطوعة: «كريس، أنا...»
رفع حاجبيه وعاد للقعود قربها:
- أنت ماذا، ترايسي؟ أتظنين أن المعاشرة الزوجية تتم فقط في ساعات الليل المظلمة؟ أتجهلين مدى جمالك؟ ألا تعلمين أن الأزواج يحبون النظر إلى زوجاتهم في أي ساعة من ساعات اليوم؟
احمر وجهها، وقالت مرتجفة:
- ربما هذا ما علي أن أعتاد عليه.
لمعت عيناه.. ثم التقط يدها يلثمها ويقول:
- ربما.. عمَّ كنا نتحدث؟
- عن أفريقيا.. سألتني إن كنت أملك القوة الكافية للسفر إلى أفريقيا، لكنني ظننتك تمازحني.
ابتسم:
- في الواقع كنت أمازحك وإنما ليس بشأن السفر. قبل استيقاظك تلقيت مخابرة تنصحني بأن أمامي ثلاثة أيام فقط قبل أن يلغى حجز مقعدين على خطوط أفريقيا الجنوبية إلى جوهانسبرغ.. وإن كنا محظوظين تمكنا من إنهاء المعاملات الرسمية في الوقت المناسب.. ويمكننا بعد جوهانسبرغ السفر إلى نيروبي ومن هناك يمكننا استكشاف أماكن مثل

مومباسا، ماليندي، زانجبار، دار السلام.. أنا لا أعرف شيئاً عن «السيشيل» وآسف لأننا لن نسافر إلى الهند.. وما اسمها؟
توسلت إليه:
- توقف.. لا تفعل بي هذا.. لا أستطيع أن أصدق! أتعني أننا جئنا إلى بيرث على أمل أن تحصل على رحلة؟
- صحيح.. لكن بيرث ليست مكاناً رديئاً على أي حال.
- أعرف.. ألهذا لقحنا تلك اللقاحات..؟
- قلت لك إننا قد نسافر إلى الخارج.
- صحيح، لكنني فكرت في مكان قريب، مثل فيجي..
- أتفضلينها..
- لا..! آه، كيف يمكنني أن أشكرك.
تمتم ينظر إلى شفتيها: «لا تقولي هذا».
أحست بذراعيه تضمانها فرفعت رأسها إليه.
كادت تذوب ثانية بين ذراعيه، لكنه سارع إلى رفع رأسه قائلاً:
- ربما من الأفضل أن نسرع.. أمامنا أمور كثيرة نفعلها في اليومين القادمين.. ما رأيك؟
ردت ببطء وبجد:
- أظن.. أظن.. أنك على صواب؟
انسلت من بين ذراعيه وانتقلت إلى جانب السرير الآخر ولكنها تعثرت بثوبها الملقى على الأرض، وانتهى بها الأمر أن أصبحت كتلة ضاحكة فوق السجاد.. ثم شهقت قائلة:
- لن أتمكن يوماً من الفرار منك فراراً مشرّفاً.

* * *

أفريقيا!
قالت ترايسي بحماس.
- دفتر مذكرات.. أحتاج إلى دفتر مذكرات وكاميرا.. لا أستطيع التصديق.. أوه.. أعرف الآن بما شعر به الدكتور ليفنغستون والسيد

ستنالي هنا!

- صحيح؟

- حسناً.. القليل.

- إذن، سنرى دون شك كيف ستحصلين عليهما... في الواقع، أنا لا أسافر بدون كاميرا، ولكن.. يبدو أنني نسيتها، لأنني كنت مشغولاً بأشياء أخرى.

ضحك، ثم لمّا لاحظ تضرّج وجنتيها لفَّ ذراعه حول كتفيها.

- متى ستتوقفين عن الاحمرار كلما تفوهت بكلمات كهذه؟ قد أبدأ بمناداتك «الوردة الحمراء» قريباً...

ردت ساخطة:

- إياك ومناداتي بهذا اللقب أبداً.

لكن، في أعماق قلبها، كانت تتساءل عما إذا كان قادراً إلى الأبد على دفع الاحمرار إلى وجنتيها. إنها حتى الآن لا تصدق أن هذا الرجل الوسيم المديد القامة الذي يظهر لها حبه ليلاً، ويعاملها معاملة طفلة نهاراً هو زوجها.

كانت تفكر في هذا دائماً، ولم تكن تعارض معاملته لها معاملة طفلة صغيرة، لأنها بذلك تستطيع التصرف بحرية كما أنها تخشى أن تخسر نفسها، جسداً وفكراً، وروحاً أمام كريسبن غاليهار... السبب أنها ما زالت لا تصدق أنه يرغب في أن يمضي عمره معها. أحست بأصبع باردة تلامس قلبها، وهذا الشعور هو ما ستشعر به حين يأتي ذلك اليوم..

كانت تهز دائماً رأسها لتبعد عنه هذه الأفكار، ولتدفع نفسها إلى كسر حواجز الخجل الذي ما زالت تحس به.

شعرت وهي تجول في أفريقيا بأن ما قرأته عنها خيالاً شاحباً إذا ما قورن مع الواقع وهذا ما جعلها تتصرف كطفلة مسحورة تركت طليقة في عالم آخر.. وهل هناك من لا يسحره مثل هذا المكان؟ كانت زانجبار مثلاً، أشبه بجوهرة وسط المحيط الهندي، بشواطئها المرجانية البيضاء، وأشجار «الفرانجيباني» الرائعة الأريج، وماضيها القاسي الغامض من

تجارة العبيد، ومزيجها من الأعراق المختلفة.. ولذا من الصعب ألا تتأثر بها، أو تنساها.

هناك بلغت ذروة السعادة، التي لاحت لها بشكل غامض ليلة زفافها.

كان قد استأجر مركباً لقضاء اليوم في البحر، ووجدا شاطئاً معزولاً مهجوراً، سبحا فيه وتناولا الطعام، وناما عند الهاجرة ولكنها استيقظت على يده التي ضمت خصرها ثم نظرت إليه.

قالت لنفسها من بين أسنانها فيما كان كريس نائماً إلى جانبها.

- لم أكن أعلم ما الأمر.. كنت كمن يكبر فجأة في يوم واحد. وكأن ما حصل لي يضع الختم الفعلي على حبي له.. وأعرف الآن أن لا طريقة أخرى أمامي للحياة سوى في حبه.. ولكنني عندما أكون سعيدة، أكون أكثر سعادة مما أظن.. وعندما أكون حزينة، أكون أكثر حزناً.. وكأنني لم أكن حية قبله.. ولم يهيئني أحد إلى هذه الحياة. لم يذكر أحد أمامي شيئاً عن عذاب الحب، وعن العذاب الناتج عن عدم معرفة ما إذا كنت محبوبة فعلاً أم غير محبوبة.

راقبت القمر الذهبي.. المبحر في سماء مومباسا متنهدة. لم تخفف حالتها الجديدة من التبصر الذهني عن قدرتها على الوقوع في المتاعب. ووجدت نفسها تتساءل عما إذا كانت ستخسر يوماً هذه القدرة المزعجة، فما حدث لها جعل ما سبق أن حدث لها غير مهم أبداً ودفع بكريس إلى فقدان صوابه معها للمرة الأولى منذ زواجهما.

بدأ ذلك اليوم كسائر الأيام بل كان أفضل من غيره، ولماذا لا يكون جيداً وأنت في رحلة «سافاري» إلى قلب أفريقيا الشرقية؟

قالت ترايسي لنفسها بصوت مرتفع:

- أوه.. كأنني في حلم تحقق.

نظرت إلى موقع المخيم الواقع على جرف مرتفع يطل على سهول «سيرنجيتي». كان الجو رطباً ضبابياً تحتهم، والسحب البيضاء تقف ثابتة بكسل فوق الأرض التي يلونها القمح الذهبي والورود.

ستحل بعد أيام الحرارة محل هذه الرطوبة الضبابية.

كانت الرحلة إلى «السافارى» فكرة كريس، وقد سلبت لبها منذ البداية. قال لها إن هناك طريقتان للسفر، إما الانضمام إلى رحلة منظمة تؤمن كل وسائل الراحة مثل المياه الساخنة للاستحمام، إلى المياه الباردة على العشاء، أو.. كما وصف.. الطريقة التي يجب أن تكون.. الطريقة الشاقة!

قالت ضاحكة:

ـ آه، لتكن الشاقة! لأنني أفضلها! أضف إلى هذا أنني معتادة على السفر الشاق.. ولطالما سافرت من «كايب يورك» إلى «بيروزفيل» مع أبي.

نظر كريس إلى وجهها المشرق المتحمس بدون أن يبتسم وقال: «ثمة مخاطر كثيرة ستحدق بنا».

ظنت ساعتئذ أن ملاحظته غريبة ولذا نسيتها. وكان أن استأجرا دليلاً من معارف كريس وهو رجل هادىء مرح، يملك معرفة كبيرة عن أفريقيا وحيواناتها.. استأجرا سيارتا لاندروفر وأدوات المخيم إضافة إلى مساعدين أفريقيين.. وفي غضون ثلاثة أسابيع تمكنا من رؤية مناظر خلابة ليس فقط في البراري بل في القرى والناس.

وانطلقت الكاميرا مع ترايسي بلا حدود، وكذلك سعادتها. وكانت تضطر أحياناً إلى أن تقرص نفسها عندما تلتقط الصور لجبال كينيا، وكلمانجارو. وكانت مسيرتهما تكمل طريقها نحو «ريفت فالي» وحول «نيغورونغو كارتر» وإلى شواطىء بحيرة فيكتوريا...

كانت في كل الأمكنة التي يتوقفون فيها تصادق المحليين، وتصورهم، وتصر على أن تجمع الأولاد حولها ليصورهم كريس معها، حتى أطلق عليها الأفريقيان المسافران معهما اسم «السيدة ماما».

وكان هذا هو اليوم الأخير فراحت توضب صندوق الطعام بعد الفطور. غداً سيعودون إلى نيروبي للبدء برحلة العودة إلى الوطن.. أما الليلة فمدعوان إلى «برابي فليز» التي تعني بالأفريقية حفل الشواء.

أيمكن أن ينسى المرء أبداً سحر «برابي فليز»؟ هل من الممكن أن

ينسى المرء الشجيرات المتناثرة ورائحة اللحم المشوي فوق النار المفتوحة التي تعطي طعماً مختلفاً عن شوائه على صفيحة «الباربكيو» المعروف. كان يحدق بهما قطعان الحمير الوحشية ولكنها كانت مختبئة كما كانت قطعان الغزلان، والزرافات، وأفراس النهر. وكان يعبق حولهم رائحة حيوانات لم تصدق أنها موجودة. ولكنها كانت تعرف أنها لن تنسى نظرتها الأولى لفهد كان مستلقياً على جذع شجرة، أو القردة، أو النمر الذي شاهدوه في الصباح الباكر.. ثم هناك الفيلة والأسود، والثيران البريّة، ووحيد القرن لذا اضطر توم ومساعداه للقيام بالحراسة الليلية ليلتين متواليتين اتقاء لشرها.

قطع كريس حبل أفكارها:

ـ هل ترافقيننا ترايسي؟ أم نتركك هنا.

تنهدت مبتسمة: «آتية».

ودست يدها في يده الممدودة.

وفيما كانوا في الطريق انثقب إطار فأطاح ذلك بنشاط ترايسي فرأت الرجال الأربعة يأخذون أدوارهم يلهثون ويشدّون، ويستخدمون لغة لا يستحب سماعها فقد انكسر مقبض المفتاح ولم يبق أمامهم سوى استخدام مفتاح عادي صغير..

أخفت ترايسي ابتسامتها ثم ابتعدت عن الرجال مقررة أن من الأفضل استغلال الكاميرا لتصوير المناظر.. وهكذا راحت تتجول.. وفي خضم هدوء الدغل وحرارته نسيت الرجال وتوترها. إنّه آخر يوم تقضيه هنا فغرقت في هذا العالم الساحر ولم تنتبه إلى ابتعادها عن اللاندروفر.. كانت تخفض الكاميرا حين كادت تتعثر بشبل أسد. شهقت ثم حدقت إلى فرائه الناعم وفمه الواسع وأسنانه الحادة ولسانه الوردي.

فجأة توقف العالم من حولها وصمت فشعرت ببرد قارس لأنها أدركت معنى هذا... نظرت إلى الأشجار الصغيرة الشائكة، وأحست بشلل تام، وهي تحدّق إلى عيني اللبوءة الضخمة الواقعة على بعد عشرة أقدام.

ابتلعت ريقها.. يا الله! أدهشها أن تقدر على ابتلاع ريقها.. وعلى الهمس يا الله! ماذا فعلت بنفسي! جاء صوت كريس من خلفها.

- ترايسي.. ارتدي إلى الوراء كما أنت ببطء.

نضح العرق البارد من جسدها ولكنها نفذت ما قيل لها.. أغمضت عينيها عندما امتد ذنب اللبوءة خلفها كقضيب مستقيم، ثم زمجرت، بصوت مرعب راعد.. جاء صوت توم من مكان ما إلى يمينها:

- تابعي السير ترايسي.

وتابعت المسير وكان يرافق كل خطوة تخطوها عذاب وخوف خاصة بعدما سمّرتها في مكانها العينين الصفراوين.. ثم اصطدمت بشيء.. إنه كريس الذي أمسكها ودفعها إلى ما وراءه وتابع المسير قائلاً بهدوء:

- لا تذعري.. تابعي المسير.

تنفست بصوت متحشرج: «ماذا عن..؟»

- نفذي ما أقول، ترايسي!

بدا لها أن دهراً قد مرّ، ولكنها كانت دقائق. فيما بعد، حملتها خطواتها إلى جانب اللاندروفر، وحملتها ذراعان سوداوان إليه.

ثم أخذ كريس يتراجع، ووقفت اللبوءة مطأطئة تحرك ذنبها من ناحية إلى أخرى ببطء.. لم تكن تركز نظرها على كريس وحده، بل أيضاً على توم الذي كان يتراجع ببطء وبندقيته مصوبة إليها. ورغم مظاهر استكانة القطة المتوحشة، كانت ترايسي مقتنعة أنها على وشك الوثوب على أحد الرجلين، ولكن ثمة ما ألهاها عنهما فقد تثاءب الشبل وراح يركض متعثراً ليرمي بنفسه تحت قوائم أمه. في الوقت نفسه، وصل كريس وتوم إلى اللاندروفر.. وزمجرت اللبوءة، وكشّرت عن أنيابها ثم أخفضت رأسها والتقطت شبلها بأسنانها وارتدت إلى الدغل.

مسحت ترايسي العرق عن وجهها، وبدأت ترتجف فتسلق كريس إلى السيارة، عيناه تلمعان غضباً.

- أيتها الحمقاء.. أيتها الغبية.. حمقاء صغيرة.. ألن تتعلمي أبداً التعقل؟ أنت هنا منذ ثلاثة أسابيع ولم تفهمي حتى الآن أبسط قاعدة وهي

ألا تتجولي وحدك.. لا أستطيع أن أشيح بصري عنك لحظة.. أنت لا تحتاجين إلا إلى جلد بالسياط ترايسي. لأنك لم تعرضي فقط حياتك للخطر، بل حياتي وحياة توم وحياة اللبوءة فيما لو اضطر توم إلى إطلاق النار عليها، وعلى شبلها. كل هذا بسببك، ترايسي باربرة تشسترتون! لأنك لا تتوقفين هنيهة للتفكير!

نظرت ترايسي إليه، ووجهها شاحب، ودموعها منهمرة على وجنتيها.

- أنا آسفة.

- آسفة.. ألم يحن الوقت لتكبري وتتوقفي عن الاعتذار للناس؟

أمسكها بكتفيها يهزها حتى اصطكت أسنانها. وهمست:

- أرجوك.. أحس بالغثيان..

وتقيأت خارج اللاندروفر، لكن حين انتهت بدا أن كريس قد صب جام غضبه عليها وانتهى فحمل إليها منشفة رطبة وطفق ينظف لها وجهها بنفسه، وكأنها طفلة، مع أن عينيه كانتا باردتين وعرفت أنه لم يسامحها بعد.

الحادثة أحبطت عزيمتها طوال اليوم مع أنه لم يذكر أي منهم ما حدث وتصرفوا وكأن شيئاً لم يحدث.

تلك الليلة، أوت ترايسي باكراً إلى سريرها، كسيرة الفؤاد متعبة بشكل لا يصدق. ولكنها وجدت نفسها غير قادرة على النوم. فاستلقت مدة طويلة على الفراش المنفوخ بالهواء الذي تتشاركه مع كريس، تراقب النار المنعكس وهجها على جوانب الخيمة.

ربما لأنها كانت في غاية التعب لم يخطر على بال كريس وتوم إخفاض صوتيهما. فسمعت توم يقول:

- يا رجل.. الأسود غريبة الأطوار.. إنها مخلوقات لا يمكن التنبؤ بتصرفها... يمكنني كتابة رواية عنهم.. وسأكتب فعلاً بعدما حدث اليوم مع ترايسي.

- ربما علي أنا ذلك، فترايسي تدأب على أن تجذب المتاعب.

تألمت ترايسي مما سمعته.

قال توم: بكل تأكيد.. لقد فكرت لأول وهلة قبل أن أضع يدي على البندقية أنها هالكة ولكنها لم تقصد أي أذى.

- إنها لا تقصد شيئاً أبداً.

- كنت قاسياً جداً عليها.. أتعرف ما أظن، أعرف أنه يجب عليّ ألا أتدخل، لكنني أحس بأنني مهتم بها بعد ما كدنا نخسرها. إنها شخصية جميلة.. لكن أظن أنها بحاجة إلى أولاد... أنظر فقط إلى الطريقة التي تجتذبهم إليها حيثما تذهب، وليس البشر فقط.. إنها وُلدت لتكون أماً «السيدة ماما».

مضى وقت طويل قبل أن يتكلم كريس، وحين تكلم كان يختار كلماته بحذر:

- إنها صغيرة جداً.. أتساءل أحياناً عما إذا كان من العدل لها أن تنتظر.

- ليست صغيرة إلى هذا الحد.. إنها ناضجة.. على أي حال، ليس الأمر من شأني... يا للعجب كم من شبل كان للبوءة في ذلك الدغل..

استمرت ترايسي تصغي إليهما وقتاً طويلاً، تركز بحذر لئلا تفكر في ما قاله كريس عنها.. ولكن سرعان ما جرفها النوم بدون أن تعي.

استيقظت باكراً في الصباح فوجدت كريس مستيقظاً إلى جانبها يراقبها تحت نور الفجر الرمادي، لم يقل شيئاً، بل حدق إلى عينيها فقط ثم لاح ظل ابتسامة على شفتيه وقال:

- هل سنكون صديقين اليوم «سيدة ماما»؟

مد يده ليمسك بخدها..

ابتلعت حشرجة علقت في حلقها وقالت: «أجل، آه، أجل أرجوك!».

* * *

٦ ـ العلاقة المستحيلة

قالت لولا فوكس، وهي تنظر إلى غرفة الطعام في المنزل الكبير:

- أوه.. حسناً.. أعتقد أن علينا مسامحتكما لتسللكما من وراء ظهورنا كما نسامحكما لأنكما جلبتما إلينا هذه الهدايا كلها. ما رأيكم يا رفاق..؟

أبدى جميع أفراد عائلة فوكس وعائلة يونغ وكيلي هتر موافقتهم. وحتى السيدة بريتونز ابتسمت ولم يبق سوى ميتشل يونغ ليبدي عدم موافقته، إذ قال بحزن:

- لم أحضر قط حفل زفاف.

كرر كريس متظاهراً بحزن مماثل:

- اسف ميتشل.. لكن، هل أعجبتك هديتك؟

- أجل.

قالت أمه توبخه:

- ميتشل.. من المفروض أن تقول شكراً.. وليس أجل..

قاطعها كريس:

- لا بد أنا وترايسي أن نشكركم جميعاً على هديتكم الجميلة.

نظر كريس إلى الفضيات المحفورة المستقرة بفخر فوق الطاولة وأكمل

- إنها عظيمة.. وهذه الحفلة المفاجئة للترحيب بعودتنا رائعة وهي أشبه بحفل زفاف. أتوافقينني الرأي ترايسي؟

- بكل تأكيد.

فكر ميتشل هنيهة قبل أن يقول:

ـ أيعني هذا أنك ستسمحين لي بتقبيلك ترايسي؟

صاحت به عدة أصوات: «ميتشل».

لكن كريس تجاهل الجميع، وأدار ترايسي نحو ميتشل ليقبلها، ثم قال:

ـ هاكم.. هل أنتم راضون الآن؟

هلل الجميع دليل رضاهم إلا كيلي الذي أشاح بوجهه لأنه ما يزال يحمل في نفسه حرجاً طبيعياً، ولكنه فكر في أمر وحيد مفيد وهو أن كريس أبعدها عن يدي ذلك النذل دان رانكين!

لاحظت ترايسي تعابير وجهه فاطمأن بالها إلا أنها حين كانت تراجع البريد في الصباح اكتشفت سبب ارتياح كيلي.. كانت «تيرا ناهيتي» والأفراس الأخرى التي يملكها دان رانكين شراكة مع كريس قد أصبحت ملك كريس وحده. عضت شفتها لأنها أدركت كم كلف هذا كريس من مال، وكم كانت ستكون خسارة لو أن دان رانكين رفض التخلي عن حصته في الفرس «تيراتاهيتي».. ولم تكن لتدري أن المتهجم الأحمر الرأس، حين واجه الغضب البارد من كريسبن غاليهار، قرر أمام اهتمامه بالبقاء حياً، أن يتخلى عن حصته بملء رضاه.

تلاشى قلق ترايسي، ومعه أسباب قلقها المتعلقة بارتياب لولا فوكس في أسباب زواجها. ولكن لولا رغم شكوكها لم تظهر ما يدل عليها بل ظلت تعامل ترايسي كما كانت تعاملها دائماً، كصديقة وكابنة. وهكذا راحت ترايسي تسترخي، خاصة بعدما تخلصت السيدة بريتونز من سوء تصرفاتها، فقد أدركت ترايسي أن المديرة لا تظهر جفاء بسبب ازدراء أخلاقي بل لإظهار عدم موافقتها على أن تكون فتاة في الثامنة عشرة السيدة التي تلقي عليها الأوامر.

وهكذا انسابت الحياة في مسار رتيب يختلف كثيراً عما كان قبل وقوع الفتاة الصغيرة عن الدراجة.

ولكن كان هناك فروقات غير مرئية فقد وجدت من الصعب عليها الاحتفاظ بجزء بسيط من نفسها لا يصل إليه، كحماية لها إزاء يوم قد

يتعب فيه منها، ويبتعد.. بطريقة ما، كان هذا أمراً جيداً كما لو أنها تلقي سلاحها له، وهذا ما لا حول لها فيه ولا قوة، لكنه حمل معه إحساساً غريباً بالسلام والطمأنينة وهذا ما جعلها تشعر بأنها متساوية مع زوجها. كما أنها راحت تكتسب جمالاً إضافياً، وكأنها زهرة تتفتح يرنو إليها الجميع.

ثم، حدث شيئان: أحدهما لم يكن مفاجئاً، أمّا الثاني فكان مفاجأة مذهلة أرسله إليها الغيب. ففي صبيحة أحد الأيام تناولت الطعام مع كريس وتكلمت إليه مرتين ولكنها في المرتين لم تتلق منه سوى ردين قصيرين.

ثم نهض وخرج قبل أن يكمل فطوره، تاركاً ترايسي تعيد التفكير في ما فعلته في الأيام القليلة الماضية وكانت النتيجة أنها لم تفعل شيئاً أحمق بل كانت مثال الرزانة.

ثم تصاعد قلقها بشأن المال الذي دفعه ثمناً لحصة دان رانكين في الأفراس، وثمناً للرحلة التي قاما بها في رحلة شهر عسلهما. لم تكن لتشك في ثراء كريس ولكن بعد أن قضت حياتها في عوز لم تستطع سوى القلق. التقطت الصحيفة التي كان يقرأها، والتي تركها على الطاولة، لترى ما إذا كان فيها أخبار مالية مزعجة..

كانت الصحيفة مفتوحة على الصفحة الاجتماعية، وكادت تقلب الصفحة، حين طالعها اسم مطبوع أمامها.. لينورا بارتلميو.. المولودة سينكلير..

قالت بصوت مرتفع وعبوس تركيز على جبينها:

ـ لينورا.. سنيكلير؟ لينو.. أوه!

اتسعت عيناها وهي تعود إلى الاسم المنشور تحت صورة امرأة جميلة نحيلة شقراء.. وقرأت: «لينورا بارتلميو سينكلير خرجت من عزلتها بعد وفاة زوجها أثر مرض عضال نادر.. ريتشارد بارتلميو وقع ضحية المرض منذ ثلاثة أشهر، لكن لم يعرف الكثير من الناس المأساة التي حلت على الزوجين الوسيمين إلا منذ أيام. أما صورة السيدة بارتلميو فقد التقطت أثناء الإجازة التي قضتها على الشاطىء الذهبي، وقد صرحت بأنها تريد

التقاط خيوط حياتها ثانية، لأن تلك رغبة زوجها. كما قالت إنها «ستموّل أبحاثاً عن المرض الذي أودى بحياة زوجها والذي لم يعرف عنه سوى القليل».

تركت ترايسي الصحيفة تقع من يدها ثم حدقت إلى الجدار المقابل.

بعد ساعتين، كانت لولا تحتسي الشاي مع ترايسي وقالت لها:

ـ جئت إلى منزلك لأستعير الجريدة. فقد كانت نهاية جريدتنا غرقاً.

سألت ترايسي وهي تضع فنجانها ببطء على الطاولة:

ـ غرقاً؟!

ـ وجدتها غارقة في المغطس إنما لم أعرف على يد من فقد ادّعى الجميع البراءة، ولم يكن لدي الطاقة الكافية لأستكشف الحقيقة.

ـ أظنها.. هنا.. في مكان ما.. لماذا تريدينها؟

ـ حسناً، ستجري حفلات «الرودبو» في نيرانغ في الأسبوع المقبل، وهو حدث كبير.. هل حضرت واحداً من قبل؟

ـ لا.. أعني ليس هنا، مع أنني حضرت بعضها في الغرب... حسناً! أعتقد أن الأولاد يحسون بالإثارة.. لكنني لا أظن أن هناك شيئاً عن هذا في الصحيفة.. على الأقل لم أرَ شيئاً.

هزت لولا كتفيها، واستمرت في الحديث وكأنها لا تدرك أن في الأمر شيئاً خاطئاً.. لكنها قالت وهي تغادر:

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ بخير تماماً!

ـ تبدين متوترة قليلاً... هناك نوع من الجراثيم في الجو.. ويجب أن أمنع لوسيا من الذهاب إلى المدرسة..

ـ أوه؟ أرجو ألا يكون هذا خطيراً؟

ـ لا أظن هذا.. أراك لاحقاً حبيبتي.

فيما كانت ترايسي تتنفس الصعداء مراراً في ذلك اليوم، لم تكن تعلم أن لولا ذهبت إلى هيلين يونغ تستعير صحيفتها.. وهذا ما أدى إلى وصول جاك إلى منزله لتناول الغذاء، ليجد زوجته تحدق إلى الصفحة الاجتماعية

وفي عينيها نظرة ارتباك انقلبت إلى نظرة رعب عندما رفعت نظرها إليه. فسألها:

ـ ما الأمر الآن؟

ـ أظن، أنه كان علي، سدَّ فمي بقدمي.. لكنني لم أكن أعرف..!

ـ تعرفين ماذا؟

ـ عن ترايسي.. وكريس.

***

مرت عدة أيام على اكتشاف ترايسي لما ورد في الصحيفة، وكانت غارقة في التفكير حين فاجأها كريس بسؤاله:

ـ ما الخطب ترايسي؟

كان كريس قد أوى إلى فراشه وراح يراقب ترايسي وهي تسرّح شعرها.

سعت عيناها إلى عينيه عبر المرآة فرأت أن عينيه لا تبديان شيئاً:

ـ لماذا تسأل؟

وتابعت تسريح شعرها، فرد بعد لحظات:

ـ لا أدري.. ربما لأنك لا تبدين ترايسي التي أعرفها فأنت في غلالة النوم هذه خلابة وساحرة.

أخفضت فرشاة شعرها، ونظرت إلى غلالة نومها الزرقاء ذات الياقة المفتوحة وذات طبقات «التنتنا» المخرمة المصطفة فوق بعضها بعضاً. كانت قطعة من جهاز العرس الذي اشترياه قبل سفرهما إلى أفريقيا وكان كريس قد اختاره لها بسبب لونه، الذي قال إنه يماثل لون عينيها... وسألت:

ـ ماذا تعني؟ إنه كثير الأناقة علي؟

ابتسم:

ـ أبداً.. إنه رائع عليك في الواقع، جميل، نضر، لا يكشف الكثير، بل يكاد يكون متزمتاً.. ولكني لم أقصد هذا.. فأنت تبدين جادة جداً مؤخراً، وكأنك كبرت سنوات... أتريدين إخباري بالأمر؟

عضت شفتها، ثم قالت بهدوء:

ـ أنا.. ربما كبرت فعلاً، أخيراً. أكاد أبلغ التاسعة عشرة.

لم يقل شيئاً ولم تستطع كذلك إجبار نفسها على النظر إليه في المرآة. وضعت الفرشاة من يدها بحذر ووقفت فجأة بدفعها دافع متهور إلى إطفاء النور ليعم الظلام الغرفة.

وقفت مرتبكة وسط الغرفة، حتى سمعته يتحرك، ويقول:

ـ لما لا تأتين إلى الفراش لأرى كم كبرت؟ وإلا ظللت أفضل ما كنت عليه قبل أن تحملي ثقل عشرين صيفاً وقبل أن تصبحي على هذه الدرجة من الرصانة والجد.

أحست بقلبها يخفق فضغطت يديها وكان كل ما فكرت في قوله:

ـ ظننتك تريدني أن أكبر.. ألم تقل ذلك دائماً؟

أمرها بهدوء: «تعالي إلى هنا ترايسي».

تحركت نحو الفراش وجلست.. فتمتم:

ـ أعني هنا.. حقاً...

ومد يده يجذبها إلى جانبه ويكمل:

ـ.. بين ذراعي حيث أحس بك، فعندها قد أعرف ما يجري وراء هذا التجهم الذي أشاهده منذ أيام في عينيك.

دفع أصابعه إلى شعرها، ورفع رأسها إلى الوراء، فأغمضت عينيها وأجبرت نفسها على التفكير، ولكن الحقيقة أنها لا تعرف في ما تفكر.. فهو كان يتصرف معها بطريقة طبيعية منذ ذلك الصباح، وكأنه لم يحدث لعالمه حدث مدمر. مع أنها موقنة من أنه تأثر كثيراً عندما قرأ المقالة المتعلقة بلينورا سينكلير. ولكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ أيتخلص مني؟ لأنني أعرفه جيداً أعلم أنه لن يتركني. إذن، ربما يحاول الاستفادة من موقف ساخر مرعب، دون أن يدرك أنني أعرف أن حبه الكبير الوحيد في حياته قد عاد حراً. وحين لا يعرف...

ـ ترايسي؟

فتحت عينيها بحدة وهمست: «نعم؟».

مد يده يضيء المصباح الصغير قرب السرير:

ـ أنا الآن قلق فعلاً. لقد كلمتك مرتين، ولم تسمعيني.. هل لي منافس؟ أهذا هو الأمر؟

اتسعت عيناها:

ـ ماذا؟ أوه.. لا!

ـ إذن، ما الذي يشغل تفكيرك يا طفلتي الحبيبة الجميلة؟ قلت لي مرة إن عقلك لا يسلك إلا اتجاهاً واحداً في التفكير، وأرى الآن أنك على حق.. أم تراك تحاولين القول لي إنك لا تحبين حياتنا؟ لأنني سأجد هذا بعيداً عن التصديق..

استحوذت عليها أفكار لاذعة. هل سأبقى طفلة بالنسبة إليه دائماً؟ لكن كيف سأتحمل فقده؟ وكيف أكون طفلة وأنا أشعر تجاهه بهذه المشاعر كلها؟

ـ ترايسي...

أخرجها صوته الحاد من تشوش أفكارها، ولأول مرة منذ بدأ هذا الحوار المستحيل وجدت في صوته توتراً جعلها تخاف وتتوتر، وأحست أنه لن يتركها تتهرب من الحقيقة.

خرجت كلماتها بأنفاس مقطوعة ولم تدرك إلا فيما بعد كم كان يمكن أن يساء تفسير كلماتها.. لعقت شفتها:

ـ فلنقل ولنفترض إننا يوماً سئمنا من بعضنا بعضاً، فماذا سنفعل؟ إن سئمت مني يوماً فهل.. هل ستقول لي؟

تغضن جبينه من أثر العبوس ثم اشتد ضغط شفتيه، وحفرت أصابعه عميقاً في كتفيها، ثم قال:

ـ ماذا تعنين بقولك؟

تلعثمت وهي تقول:

ـ لا.. لا.. شيء حقاً.. أردت فقط أن أعرف.

ـ ترايسي.. الأحمق وحده هو من يسأل مثل هذه الأسئلة بدون أن يكون لديه دافع حقيقي علماً أنك في أغلب الأحيان تقومين بأشياء غبية..

ولكنك لا تتحدثين أبداً بغباء. لذا أود أن أعرف ماذا يجري.. لا.. لا تديري رأسك.. أريد أن أعرف كل شيء.. وسأعرف، ولو اضطررت إلى انتزاع الحقيقة منك انتزاعاً.

تسمّرت في مكانها، وقد تلاشى اللون من وجهها، تاركاً عينيها قاتمتين.. وتصاعدت شهقة مريرة. قالت بارتجاف:

ـ أكرهك أحياناً كريس.. تعاملني دائماً كطفلة!

سألها ببرود:

ـ هل أعاملك كذلك حقاً؟ سامحيني إذن.. لكن يجب أن أعترف أنني مرتبك، لأنني أظن أنني أعاملك كامرأة.. ربما امرأة صغيرة وغير ذات تجربة ولكنك فعلاً صغيرة، وظننت أنك تفضلين البقاء طفلة! مع أننا قادران على التغيير. ولكنني ما زلت مصراً على معرفة سبب رؤيتك للأمور بطريقة مختلفة.

ـ الأمر.. أنا.. أنت لا تفهم..

ـ ترايسي.. أتحاولين القول لي، بطريقة ملتوية، إنك سئمت مني؟

همست برعب:

ـ لا! ليس الأمر هكذا.. حسناً.. لا..

لكنها لم تستطع أن تكمل، فسألها بدون أن يشفق عليها.

ـ لماذا تغيرت إذن؟ لم تتصرفي بطريقة غريبة الليلة فقط بل لاحظت ذلك منذ أيام.. هل قابلت رجلاً آخر؟

ـ لا..

ـ إذن هل استنتجت بأنك ستكونين أفضل حالاً بدوني. وهذا ما يظهر، يا طفلتي العزيزة التي لا تحب هذه التسمية. يا لغبائك!

نسيت ترايسي بؤسها وارتباكها أمام الغضب العاصف الذي عصف بها وكان هذا الغضب منفساً لها. ووجدت لها متنفساً أثار دهشتها.. فقد انتزعت نفسها منه، وضربته على وجهه، ثم رفعت يدها لتكرر ما فعلت شاهقة بغضب. ولكنه أمسك معصمها بقبضة قاسية، وجرها بلا رحمة إليه.

قاومته قليلاً ولكنها استسلمت خاصة بعدما رأت في عينيه.. مع ذلك تكلم بهدوء:

ـ جيد جداً.. إذن لك طبع عنيف أيضاً.. ترايسي.. وهذه خطيئة أخرى مقلقة تضاف إلى لائحتك. لو أننا سألنا والدك في هذا الأمر، لقال بلا شك إنه عليك أحياناً أن تدفعي ثمن خطيئتك. ربما لن يكون هذا غير مناسب في ضوء ما لا تريدين أن تعترفي به. ولكن ربما هذا ما تريدينه.

ترك يدها بحركات متعمدة. وأخذ يمعن النظر فيها بتكاسل وسخرية وعندما عادت عيناه تنظران إلى وجهها. تمتم:

ـ كنت لطيفاً جداً معك ترايسي نظراً لصغرك وبراءتك. لكن ربما، حان الوقت لإنهاء هذا الوجه.. ربما هذا ما تحتاجين إليه لئلا تبقي مصدر إزعاج.

همست برعب: «كريس».

لكنه نظر إليها قليلاً وشدها إليه..

على أي حال، حاولت ألا تتجاوب معه، وجعلت كل عضلة في جسدها تتوتر بعناد، ولكنه اخترق دفاعاتها واحدة تلو الأخرى حتى أدركت يائسة أن تشنج جسدها السلبي لم يكن الرد، بل فخ لها في الواقع.. إذ سرعان ما أحست بالاسترخاء وسيطرت عليها أحاسيس غير ملائمة ولما رفع رأسه رأت السخرية في عينيه.

ولكن هذا لم يغير من واقع أن مشاعرها كانت تسير إلى حيث يقودها هو. فتحركت بين دائرة ذراعيه بتناغم مع رغبته.

مضى وقت طويل، قبل أن تتمكن من العودة من المرتفعات التي رفعتها إليها مشاعرها.. ولم تتحرك بل ظلت مستلقية وعيناها متسعتين. إنما بغير دموع، شعرت بأطرافها كليلة وكأنها أطراف لعبة قماش، وبأنفاسها عالقة ولم تكن تظن في الواقع أنها قادرة على الحركة، ولم ترغب في التفكير.. ولكن، أخيراً طرد صوت واهن الكلل عن أطرافها فأدارت رأسها ببطء ووجدت كريس يتكىء على ذراعه ينظر إليها بتجهم.

تسللت موجة احمرار إلى وجنتيها، وهي تفكر في الطريقة الوقحة غير

الخجولة التي تصرفت بها معه في الوقت الذي تعرف فيه أنه إنما يفعل ذلك بسبب الغضب. تسلل فجأة شيء مما قاله لها دان رانكين مرة إلى تفكيرها المتردد، وهو حديث يتعلق بقرد يعزف الكمان. ولكن ذلك كان معاكساً فهي ليست سوى ساذجة بين يدي معلم تلاعب بها بدون رحمة عن قصد حتى أصبحت مشلولة التفكير والقدرة.

أغمضت عينيها ولم تتذكر أنها شعرت في يوم من الأيام بأنها ضعيفة إلى هذا الحد أو مرهقة هذا الإرهاق.

ـ ترايسي؟

أدارت رأسها بعيداً، وأحست بالدموع تتسلل إلى خديها.

ـ لا تبكي.. ألم يكن هذا ما أردته؟

لم ترد، بل حركت رأسها بطريقة قد تدل على يأس، ولعقت الدموع عن شفتيها، ثم انتفضت مذعورة عندما دس ذراعيه حولها وضمها إليه، ليقول بهدوء:

ـ يا إلهي.. أنا آسف.. أعرف أنك لست مستعدة بعد لهذا. ستفهمين يوماً ما.. لا تبكي..

لكنها لم تستطع إيقاف دموعها، وبكت على كتفه.. فتركها تبكي ثم راح يمسح شعرها، وعندما انقطعت عن البكاء عاد يحدثها بلطف:

ـ أتذكرين مطار «نيروبي» ترايسي؟ أتذكرين ذهولك عندما عرفت أنه وسط محمية حيوانات. أتذكرين كل حفلات الشواء التي أقمناها تحت ضوء القمر، والسفر إلى البراري والطريقة التي كان القمر يشع فيها فوق كلينمجارو تلك الليلة؟ وذلك الطفل الأسود الذي أردت أن تخطفيه.. وابن ذلك القبيلة الذي أراد خطفك.. أتذكرين.

وأثار في نفسها جيشان ذكريات، أحياناً بمزاحه وأحياناً بنبرة صوته الغريبة التي لم تستطع فهم كنهها ولكنها أخيراً وجدت أنها تسترخي لا إرادياً وابتسمت له. ثم نامت بين ذراعيه بدون أن تدري أنه ظلّ يتحدث إليها فترة ممسداً شعرها حتى تأكد من أنها لن تستيقظ. ثم حدق إلى الجمال الضعيف طويلاً قبل أن يغمض عينيه.

أنت قدري

تأخرت في الاستيقاظ في الصباح التالي. فكان أن خرج كريس قبل أن توقظها السيدة بريتونز أخيراً، قائلة:

ـ حسناً ترايسي.. أيام الكسل تمهد لعمل كسول. وأنت تجعلين من هذا اليوم يوم كسل. طلب مني كريس أن أتركك نائمة قليلاً ولكن حدث شيء مثير للاهتمام.

ـ أوه..؟

نظرت إلى الفطور الذي حملته إليها السيدة بريتونز:

ـ ما كان يجب أن تزعجي نفسك.. ماذا تعنين؟ وما الذي حدث؟

ـ تلقيت مخابرة هاتفية من مراسل صحفي بعد مغادرة كريس مباشرة.. هل أصب لك الشاي أم تنتظرين إلى ما بعد الفطور؟

ـ أنا.. شكراً.. صبي لي الشاي، فلا أشعر بالجوع.. ماذا أراد المراسل؟

ـ أراد أن يعرف ما إذا كان هناك شيء من الحقيقة في الشائعة التي تقول إن أملاك بارتلميو برمتها ستباع بالمزاد العلني وما إذا كان كريس سيتولى بنفسه هذا البيع؟ يبدو أن المراسل حصل على هذا الخبر من مصدر موثوق، كما يبدو أن الأرملة عرضت الأملاك للبيع، على الأقل بين يدي كريس. ما رأيك بهذا؟ أستطيع القول ان هذا سيسبب بعض الإثارة! فأسلاف ريتشارد بارتلميو هم من فتحوا تلك المنطقة.. ألا تعرفين هذا؟ وليس هذا فقط، بل أبدى أفراد الأسرة امتعاضاً من مسألة البيع.. تصوري هذا.

كانت السيدة بريتونز تنظر إليها نظرة المرأة التي لا تحب شيئاً أكثر من القيل والقال، وحاولت ترايسي التفكير في ما تقوله، لكنها أخفقت، فارتشفت الشاي، وهي تشعر بقلبها يهوي وتابعت السيدة بدون أن يعيقها أحد.

ـ إنه يعرفها.. أعني الأرملة.. كانت من عائلة سينكلير وهي أجمل امرأة قد تقع عيناك عليها وبحسب قول..

صمتت فجأة، واحمرّ وجهها حرجاً وعندما سمعت رنين جرس

أنت قدري

الهاتف انقطعت عن الكلام:

ـ أوه.. إذا كان المتصل ذلك المراسل مرة أخرى، فماذا أجيب؟ أم تراك لا تعرفين شيئاً عن هذا الموضوع؟

كان يمكن لترايسي أن تتخلى عن أي شيء مقابل إظهار معرفتها بالأمر، ولأسباب عديدة قالت بثبات:

ـ لا.. لا أعرف. هل أخبرك كريس إلى أين سيذهب؟

هزت السيدة رأسها نفياً فتابعت ترايسي:

ـ إذن من الأفضل أن تحيليه إلى المكتب في المدينة، سيدة بريتونز.. وسأنزل حالاً لأساعدك.

مضى وقت طويل قبل أن تنزل ترايسي.. فقد وضعت الشاي من يدها بعد خروج المرأة، واستلقت في السرير تحدّق إلى السقف وقالت لنفسها هامسة: «والآن هذا، وعلى قمة ما حصل ليلة أمس! ماذا يعني؟ من الواضح أنه يراها ويتحدث إليها.. ألم أكن أنا فقط سبب غضبه ليلة أمس؟ أكان يشعر بالإحباط أيضاً؟»

استلقت طويلاً تحاول أن تفكر.. ثم سمعت جرس الهاتف مجدداً فنهضت من السرير بجهد لتستحم.

دفعتها رؤية صورتها في مرآة الحمام الطويلة إلى التماسك قليلاً. عندما حدّقت إلى صورتها في المرآة ارتجفت لأنها تذكرت المعاملة الخشنة التي عاملها بها كريس ليلة أمس.. وعندما لمست كدمة كانت على ذراعها من أثر أصابعه القوية غزاها إحساس غريب أو بالأحرى مزيج من الأحاسيس، وتنهدت.. وكان من بين هذه الأحاسيس إحساس بالإذلال لأنها تجاوبت معه ولكن في الوقت نفسه رافق هذا الإحساس شعور بالفخر. فلماذا؟ أما كان عليّ أن أكرهه لتعمده القسوة في معاملتي لأنه ما يزال يراني طفلة؟

رفعت صوتها في وجه صورتها: «ولكن الحقيقة أنني لست طفلة بل أشعر بأنني أصبحت امرأة».

حين عاد كريس إلى المنزل متأخراً، كانت في الفراش. فصعد فوراً

إلى غرفة النوم، وجلس إلى جانبها على السرير يحيطها بذراعيه. فارتجفت، تفكر في المقاومة، لكنها ألقت رأسها على كتفه في النهاية.. فقال لها:

ـ آسف لتأخري.. أنت بخير؟

هزت رأسها إيجاباً دون أن تنبث ببنت شفة.

رفع رأسها يدرس وجهها وقال بابتسامة ماكرة خفيفة:

ـ أنت لا تبدين.. بخير.. بل.. قلقة.. أبسبب ليلة أمس ترايسي؟ أتخلى عن أي شيء لأمحو ما حدث، ولكنك تعرفين أن عندي طباع سيئة.. ولم أستطع فهم ما تحاولين الوصول إليه.. ألن تخبريني الآن؟

همست: «أظن..»

ثم سحبت نفساً عميقاً ووجدت أنها لن تستطيع أن تبوح له بالحقيقة.

ـ أظن أنني لا زلت لا أصدق أن ما بيننا أمراً حقيقياً.

وكان ما قالته بطريقة من الطرق حقيقة.. فقال بهدوء:

ـ إذن، عليّ أن أثبتها لك.. لكن قبل هذا، يجب أن أقول لك إنني أحبك ترايسي.. ويجب ألا تشكي في هذا أبداً...

ـ لست مضطراً لقول هذا.

ـ ولماذا لا أقول؟ إنها الحقيقة!

خبأت وجهها في كتفه وفكرت: إنها الحقيقة بطريقة ما، ولكن، هل هو ذات الحب الذي تكنه له؟

ـ ترايسي؟

رفعت رأسها، وهي تعرف أن عليها أن تقول له، فإن لم تكن قادرة على البوح بمخاوفها الحقيقية فماذا غير ذلك يمكن أن تفعل؟

قالت بحزن: «وأنا أحبك أيضاً».

ـ إذن.. أتمانعين لو حاولت التعويض عن ليلة أمس؟

ـ لا..

وهذا ما فعل ولكن بلطف كبير، صحيح أنها بكت مرة أخرى، إنما هذه المرة بسبب دفئه وبسبب إحساسها بأنه يعاملها معاملة مميزة.

في اليوم التالي، وفي سياق الأمور العادية، أخبرها عن مسألة بيع أملاك بارتلميو، وكيف أنه قرر إطلاق دعاية واسعة في طول البلاد وعرضها، نظراً لقيمة الأملاك التاريخية. كما حدثها كذلك عن المعارضة التي تواجهها لينورا بارتلميو من العائلة بصدد البيع.

قالت ترايسي مترددة:

ـ أليس.. أليس عندها أولاد؟ فلو كان لها أولاد لورثوا جزء من الميراث.

ـ لا.. في الواقع ليس هناك أي وريث شاب في العائلة الآن. بل مجرد عمات وأعمام عجائز وأبنائهم الذين يحبون امتلاكها ولكنهم يرتجفون من فكرة إدارتها. خاصة وثمة موسم جفاف يلوح في الأفق. ولكنها صاحبة أكبر الأسهم فيها، ولها الرأي النهائي، ومن سوء الحظ أن الجفاف المترقب لن يجعل عملية البيع سهلة.. لذلك فأنا مضطر إلى قضاء وقت طويل بالعمل فيها.

وهذا ما كان.. في الواقع إن الوقت الطويل الذي أمضاه في ترتيب عملية بيع أملاك بارتلميو مكنّ ترايسي، بعد عدة أسابيع، من اكتشاف أنها حامل، وكانت الوحيدة التي تعرف بأمره في الوقت الحاضر.

* * *

٧ ـ أملٌ ضاع في النهر

كانت لولا فوكس، أول من عرف فقد أتت لتمضية السهرة مع ترايسي فوجدتها تتقيأ ما أكلته وقت العشاء بطريقة مؤلمة أما كريس فكان في سيدني.

قالت ترايسي تمسح العرق عن جبينها:

ـ يبدو أنني تناولت طعاماً لم يتفق مع معدتي.. ولكن هذا حدث بالأمس أيضاً..

ضاقت عينا لولا مفكرة.. ثم قالت بحذر:

ـ يعني ذلك في بعض الأحيان متاعب.

ـ وماذا تعنين بذلك؟

ـ الطفل.

رفعت ترايسي نظرها ووجدت أن لا مجال لإخفاء الحقيقة.

ـ هل يتحول غثيان الصباح المعتاد إلى المساء؟

ـ هذا يحصل لكثير من النساء.

ـ إذن، لماذا يدعى «غثيان الصباح»؟ وكيف عرفت؟

ـ لم أكن أعرف.. مع أنني شككت فيه، فثمة حالات معينة تظهر على المرأة في الحمل الأول. إنها تشعر بالكسل والدوار والضياع، خاصة...

قاطعتها بسخط:

ـ خاصة أنا..؟ أهذا ما ستقولين؟

ردت بعنف:

ـ هراء! خاصة وأنت ما زلت في الثامنة عشرة.

www.liilas.com

ابتسمت ترايسي، ثم قالت بهدوء:

ـ أكاد أبلغ التاسعة عشرة. وهذا يعني أنني عند الولادة سأكون في العشرين وهو عمر مناسب لإنجاب طفل.. أليس كذلك؟

ـ أبعرف كريس؟

ـ لا.

عبست لولا:

ـ ثمة خطب ما؟ اعتقدت أنك في شوق لإطلاع العالم على هذا الخبر.

أدارت ترايسي وجهها عما كانت تراه في عيني لولا منذ أسابيع.. وعرفت أن موضوع لينور سينكلير هو ما يجعل لولا قلقة.. فحاولت تغيير الموضوع ولكن لولا لم تتراجع هذه المرة.

ـ ترايسي.. لن أتجاهل الأمر أكثر خاصة وأنا أراك مشوشة الفكر وتعسة.

ـ لست كما تقولين.

ـ إذن، لماذا لم تطلعي كريس على الحمل؟

ـ أنا..

ـ ترايسي.. صدقيني، ليتني فقدت أثمن ما لدي قبل أن أتحدث عن كريس ولينور سينكلير.. لكنني لم أكن أعرف إلا أن عدم المعرفة ليس بعذر.

صمتت ترايسي قليلاً، ثم قالت:

ـ وكيف كان لك أن تعرفي وأنا نفسي لم أكن أعرف. أن يتزوجني كريس لآخر أمر توقعته.

ردت لولا متألمة: «إذن لا أريد التطفل».

ـ هل ستسألين لماذا تزوجته؟ لأنني أحببته.. وقعت بالضبط فيما حذرتني منه، وفيما كنت واثقة أنه لن يحصل لي.. ثم حدث ما أقنع كريس بأنني غير قادرة على الاعتناء بنفسي، و.. قرر الزواج بي وأظن أن دافعه كان إحساسه بالواجب تجاه أبي.. ولكن لسخرية القدر أننا في يوم

زواجنا بالضبط، تحررت لينورا سينكلير..

ـ ترايسي.. تبدين واثقة من أنه لا يحبك.. ولكن كل من له عينين في رأسه يرى أنه مولع بك أشد الولع.

ـ أوه.. أنه يحبني.. لكن بطريقة ما.

ـ وكم من طريقة للحب؟

ـ أظن أن هناك طرقاً مختلفة كثيرة، فمن يفقد قلبه يرضى بأي شخص آخر.. وأنا أعرف أن كريس لن يهجرني، لأنه يحس بالمسؤولية نحوي.. والآن بوجود الطفل..

صمتت تهز كتفيها بحيرة. فتنهدت لولا وقالت:

ـ فلتكن واقعيتين.. أوه.. يا الله! لن أسمح لنفسي بالانغماس في القيل والقال.. ولكن ألا ترين ترايسي، أنت تفترضين أموراً كثيرة، أولها أن كريس ما زال يشعر بذات المشاعر بعد مضي خمسة عشر عاماً.. أم أن لديك برهاناً على هذا؟

ـ لا.. لا.. ومن أين أجد البرهان الملموس؟ وهو آخر ما قد أحصل عليه من كريس.

ـ لكن ألا ترين أن هذا أشبه بإدانة شخص ما بدون دليل؟ هذا ليس عدلاً! لذلك عليك حتى تجدي الدليل العودة إلى ما كنت عليه قبل أن تقرئي ذاك المقال في الصحيفة.. أوه.. أجل.. لقد شاهدت تلك الصحيفة، ولقد خدعتني يومذاك. إنما عليك أن تعودي إلى ما كنت عليه...

ردت بانفعال مفاجيء:

ـ أتظنين أنني لا أريد ذلك؟ أتظنين أنني لا أحاول؟ أتعلمين أنني حين عرفت بأمر حملي لم أشعر بالسعادة، لأنه.. لأنه سيكون رباطاً حقيقياً بيننا.. هل لديك فكرة عن الأفكار الرهيبة التي تساورني أحياناً؟

أخذ صوتها يرتعش وينخفض:

ـ وهل تعتقدين أنني مسرورة لأنها خسرت فرصتها. أريد أن تسنح فرصة أخرى مع أنها لا تستحق كريس.. وأنا أكره نفسي لأنني أفكر في

هذه الطريقة.

ـ حبيبتي، أنت لا تعرفين أنهما..

قاطعتها بقلق:

ـ لولا.. يجب ألا تلومي نفسك، أترين، لم تكوني الوحيدة التي أخبرتني عن قلبه الذي فقده.

اتسعت عينا لولا: «من؟»

ـ لا يهم..

بدا التعب على لولا:

ـ ترايسي.. أنت على حق في شيء واحد وهو أن هذا الطفل سيكون الرباط.

نظرت ترايسي إلى يديها:

ـ إنه.. كريس، يظنني أصغر من أن أحمل طفلاً ولدي دليل على قولي هذا فقد سمعته يقول..

ولكن الغريب في الأمر أنها بعد أيام على محادثة لولا فكرت في أنها قد لا تكون قادرة على خداع لولا، ولكنها تخدع كريس، أم تراه مشغولاً جداً مؤخراً فلم يلاحظ أن الأمور اختلفت منذ تلك الليلة، ليلة حملها بالطفل على ما تظن. وهل يعتقد أنه قام بما في وسعه ليطمئنني وأن الأمر بات عائداً لي؟ وهذا أمر صحيح إنه عائد لي فعلاً.

وهكذا بذلت جهداً لترفع عن عذاب روحها، ومع ذلك لم تطلع كريس على الحمل.. وقالت لنفسها في أحد الأيام إنها ستخبره الليلة! وكان كريس قد سافر إلى سيدني للإشراف على عمليات بيع متفرقة، على أن يعود بعد الظهر.

عندما اتخذت هذا القرار شعرت براحة لم تشعر بها منذ فترة. وحدث في هذا اليوم أن أتت لوسيا فوكس تزورها وكان أن خبزت بضع قوالب كايك، وبعض البسكويت الذي يحبه أولاد فوكس ويونغ كثيراً. وكان الأولاد قد تحلقوا على المرجة الأمامية متوسلين إلى ترايسي العزف على الغيتار والهرمونيكا.

بعدما قدمت للجميع الشراب عزفت لهم ولم يمض وقت طويل على عزفها حتى توقفت فجأة:

ـ أين ميتشل؟ إنه بدون شك شمَّ رائحة الشوكولا في الكايك؟ فأين هو؟

كشر شقيقه الأكبر تود بسخرية:

ـ لديه زميلته من المدرسة.. إنهما يلعبان في المخزن الفارغ.. وأعتقد أنهما سيبقيان هناك طوال بعد الظهر.. من المفترض أن أراقبهما..

تلقى تود بعض تمتمات الإشفاق لقاء هذا فسألته ترايسي: «وأين والداك؟».

ـ ذهبا إلى ميدان السباق مع كبلي وجاك.. وصلتنا أربعة جياد. ليتهما اصطحبا ميتشل.. فهذا الولد يحتاج إلى جهاز إرسال ملتصق به لمعرفة المهمة التي يتوجه إليها.

ضحكت ترايسي:

ـ أعرف ما تعني.. ربما يجب أن تذهب لتتفقد أحواله وأحوال زميلته فقد يقعان في مشكلة كبيرة، أتذكر ما حدث الأسبوع المنصرم؟

تأوه الجميع بأسى، فالسيد ميتشل يونغ سكب مزيجاً من الماء والتراب في خزانات الوقود لكل عربات المزرعة، وهذا ما جعلها تتعطل.. وقال مدافعاً عن نفسه بأنه شاهد ذلك على التلفزيون، وأراد التأكد من أنها عملية ناجحة، فصاح والده الغاضب:

ـ ناجحة في ماذا؟

ـ في تعطيل العربات! كان البطل ملاحقاً من قبل عصابة أشرار وأراد إيقاف سيارتهم عن العمل.. ونجح في هذا.

ولكن، كان يجب إبعاده عن أبيه الغاضب فترة طويلة. أجل.. من الضروري إلصاق جهاز إرسال في ذلك الجسد الصغير.. بعد دقائق نظرت من نافذة المطبخ فرأت فرقة تفتيش على رأسها تود.. فتنهدت لأنها كثيراً ما شاركت في مثل هذه الفرقة بحثاً عن ميتشل، وهذه مهمة

شاقة، خاصة إذا لم يكن راغباً في أن يجده أحد.

مع ذلك، ولسبب مجهول، أحست بالخوف يسري في عروقها، ووجدت نفسها تفكر في النهر دون أن تعرف السبب. فميتشل ما كان ليتخلى بإرادته عن سماع عزفها الذي يصل إلى أطراف المزرعة كلها ولكن العزف لا يمكن أن يصل إلى النهر.

وقالت لنفسها بصوت مرتفع:

ـ . . بكل تأكيد لا!

فقد مُنع على الصغار من ارتياده ما لم يرافقهم شخص كبير. ولكن الفكرة ظلت تلحّ عليها بطريقة مخيفة فمع وجود صديقة لا تعرف أن للنهر قانوناً قد يقتنع بالذهاب إلى هناك. حسناً، لا ضير من التأكد، وإذا كانا هناك فلا شك في أنهما يرسمان القصور على الرمال أو يفعلان ما لا ضرر منه.

ولكن، بعد ربع ساعة، ثبت لها أن ذاك الأمل كان واهياً فما إن مرت بالدغل الحار الرطب قرب ضفة النهر حتى سمعت صراخاً واهياً. . فراحت تعدو وتعدو والعرق البارد يتفصد من جبينها وعندما وصلت إلى الضفة، وشاهدت سرعة تدفق النهر صاحت:

ـ ميتشل!

عادت تلك الصرخة الواهية عن يمينها. . فاستدارت في ذلك الاتجاه تتعثر في عدوها.

المنظر الذي طالعها عندما سلكت أحد المنحنيات كاد يخطف أنفاسها، كان ميتشل راكعاً بشكل أخرق على طوف من الأخشاب المتماسكة وسط التيار يحاول بيأس الوصول إلى غصن شجرة كانت تمده له الطفلة الأخرى الواقفة في المياه الضحلة. . ولكن الغصن لم يكن طويلاً وفيما كانت مسمرة في مكانها من الخوف مد ميتشل نفسه قدر ما يستطيع إلى الأمام ولكن الطوف تفكك وهوى إلى الماء.

سارعت ترايسي إلى الحركة، فصاحت للطفلة:

ـ اذهبي واطلبي المساعدة!

لم تخلع سوى حذائها قبل أن تغوص إلى المياه تحت الطوف. كانت المياه معكرة ومشبعة بالوحل وبالحطام المندفع من النبع، ثم شاهدت شعراً أشقر على بعد أمتار منها إنه ميتشل الذي يشهق ليتنفس ولكن التيار عاد يخطفه.

سبحت إليه بيأس كما لم تفعل يوماً مستخدمة كل طاقتها ووصلت إليه. . لكن بقي أمامها أن تعود به إلى الضفة عكس التيار. ولم تدر كيف سبحت ولكن ربما ما دفعها للنجاح إحساسها بجسد ميتشل المسترخي بين ذراعيها.

ثم وعن غير انتظار وفيما كانت تقف على قدميها في القعر أمسكت بهما يدان قويتان تشدانهما إلى الأرض على الضفة. وبدا لها أن الناس في كل حدب وصوب. عندما شهقت تطلب الهواء، شاهدت كريس ينحني فوق ميتشل.

صاحت: «آه الحمد لله. . »

وراحت تتقيأ.

ـ ترايسي. . ترايسي. . هل أنت بخير؟ ترايسي؟

كانت لولا تمسك رأسها وتردد اسمها بإلحاح فحاولت أن تقول: أنا. . بخير ولكنها لم تستطع. . فقد أحست فجأة بانحراف شاذ لم تعرف له مثيلاً. لا شك في أنها ردة فعل. . هذا ما خطر ببالها. . ظننت أنني فقدته. . ولكن ربما فقدته؟ حاولت الخلاص من لولا في اللحظة التي تحرك ميتشل فيها بين ذراعي كريس ليجلس قليلاً ويبدأ بتقيؤ المياه التي ابتلعها.

أحست ترايسي بعضلات صدرها تسترخي وحين استدار كريس إليها، حاولت أن تقول له إنها سعيدة برؤيته لكن الإحساس الغريب المتصاعد كان قد استولى عليها، وأدركت أنها تتفصد عرقاً وعادت تتقيأ بألم.

شاهدت كريس ولولا يتكلمان معاً ثم قال كريس بحدة:

ـ ما الأمر ترايسي؟

ـ أجل. . لا. . آه. . لم أحس بمثله قط.

رأته عبر ألمها الشديد ينظر إلى وجه لولا الشاحب، ثم قرأت القلق في عيني هذه المرأة فعرفت ما أصابها وراحت تشهق:

ـ أوه.. لا! أرجوك.. لا..

قاطعها كريس بصوت متجهم حار:

ـ ما الأمر لولا؟ لماذا أنت على هذه الحال؟

ترددت لولا ثم قالت بصوت هامس:

ـ أظنها.. حاملاً..

ـ ماذا؟

همس السؤال بصوت أجش. فركت لولا يديها يائسة:

ـ أوه! اعتقدت أنها أطلعتك عليه. لكن هذا غير مهم الآن.. الأهم هو...

* * *

حدقت ترايسي بإرهاق إلى الجدار المقابل للسرير.. إنه سرير مستشفى قديم.. ولأول مرة منذ أربع وعشرين ساعة، وجدت أنها قادرة على التفكير. فرغم جهود الأطباء فقدت الطفل فقد أجهضت، وأجهضت معها أدعيتها اليائسة. كان الطبيب قد قال لها:

ـ أمامك فرص أخرى عزيزتي.. وقد تبين لي مما أخبروني أنك تصرفت بشجاعة، ولا داعي للوم نفسك..

فكرت: لكنني ألوم نفسي ليس لأنني أنقذت ميتشل، بل لأنني أشركت بهذا شخصاً آخر وقتله. ليتني فكرت هنيهة في الأمر!

ـ ترايسي؟

التفتت فرأت كريس واقفاً إلى جانب السرير:

ـ لم أسمعك تدخل.

جذب لنفسه كرسياً ليجلس:

ـ لا.. كيف تشعرين الآن؟

ردت بتعاسة:

ـ أنا.. لا أدري.. بخير على ما أعتقد. ولكنني أفهم ما تشعر به

أنت.

شهقت تمسح دمعة براحة يدها. فقال ببطء وهو يمد يده ليدير وجهها إليه.

ـ هل تعرفين حقاً بما أشعر؟ أخبريني.

عندما نظرت إليه أحست بأن خنجراً يدور في قلبها بسبب الشحوب والتعب اللذين لم تشاهدهما من قبل على وجهه.. لعقت شفتيها الجافتين، وتمتمت:

ـ أظنك تقول لنفسك، إنك غير قادر على إشاحة بصرك عني بدون أن أزج نفسي في ورطة حمقاء.

ضاقت عيناه وقطعت نقطية جبينه، وصمت يتأمل وجهها المغرورق بالدموع. ثم بدأ يتنهد، وقال بهدوء واستسلام:

ـ لا ترايسي.. لم تقومي بما هو أحمق، رأيت إنساناً في خطر فأنقذته. في الواقع أنقذت شخصين، فمن كان يعلم ماذا سيحدث للطفلة الأخرى.. كانت مخاطرة اضطررت للقبول بها، وهذه ليست حماقة، بل شجاعة تامة.. وكان يمكن أن تغرقي أنت أيضاً.

ـ أوه.. لا أعرف شيئاً عن هذا.. كل ما استطعت فعله..

صمتت وهزت كتفيها وارتدت عنه:

ـ ترايسي!

أصبح صوته فجأة صارماً، وأعاد مسك ذقنها يجبرها على النظر إليه:

ـ ما كان بإمكانك القيام بشيء آخر. لم يتوقع أحد وقوفك مكتوفة الأيدي تاركة ميتشل بين عباب الماء.. اسمعي، أعرف أنني غضبت منك لأنك قمت ببعض الأمور غير الحكيمة ولكن هذه الحادثة ليست إحداها. كانت مخاطرة عليك خوضها ولا ألومك عليها.

انخفض صوته عن غير توقع ثم صدمتها الكآبة في عينيه، كان كمن وضع برقعاً ليخفي به أفكاره وقال بهدوء:

ـ يجب ألا تعذبي نفسك.

ـ لست آسفة لما فعلت من أجل ميتشل وكيف أكون كذلك؟ في

الواقع إنه يذكرني بنفسي فهو مثلي غالباً ما يقع في المشاكل، ولكن ليتني فكرت في أنني أعرّض حياة أخرى للخطر.. ليتني فكرت.

غطت وجهها بيديها وانتحبت تذكر نفسها بأنها لو توقفت لتفكر لما فقدت الذي كان بالنسبة لها أفضل ما في حياتها.

وجدت بسبب ضعفها الشديد أنها غير قادرة على إيقاف تدفق الدموع التي انهمرت كالمدّ العظيم.

في هذه المرة لم تفلح ذراعاه أو صوته الهادىء في بعث الراحة إليها. فمد يده لرن الجرس طلباً للمساعدة ولكنها لم تشعر بوخز الإبرة تدخل ذراعها ولم تسمع الطبيب يقول لكريس:

- إنها تجربة عاطفية شديدة سيد غاليهار.. لكنها ستتغلب عليها.

ولم تسمع كذلك رد كريس عليه: «أود لو أبقى معها!».

- بكل تأكيد..

***

مر أسبوع قبل أن يسمح لها بترك المستشفى.. أسبوع لم تتحسن فيه كثيراً ولكن الحياة كانت تسير حولها بشكل طبيعي.. فجاءها زوار كثر منهم آل يونغ، الممتنون لها بعمق القلقين بشكل خاص عليها. ولولا وجاك، والسيد نيوتن وزوجته وكيلي هنتر، الذي وصل حاملاً باقة ورد ضخمة اشتراها هذه المرة من محل زهور.. وكان كريس يمضي معظم الوقت معها، ولم تعد تلمح في عينيه ما شاهدته فيهما إثر عملية الإجهاض مباشرة. ولكنها كانت تعلم أن السؤال سيُطرح أخيراً وعندها لن تعرف كيف تجيب عنه. وفي هذا الأسبوع بالذات بلغت التاسعة عشرة، وتلقت قلادة من اللؤلؤ هدية من كريس. قالت له معترفة بالجميل:

- آه.. شكراً لك!

رفعت عينيها إليه وأكملت بخجل:

- شكراً لك، لكن ما كان يجب أن تفعل هذا.

- ولماذا لا؟ ألم تعجبك؟

- إنها جميلة جداً ولكنها كثيرة عليّ.

أمينة حربي

وكان أن تمَّ ما أراده كريس، وما أن أصبحت في الفراش، حتى اعترفت أنها متعبة فعلاً. وكان في قلبها إحساس دافىء لم تشهد مثله منذ أن فقدت جنينها. وبدا أن في هذا الدفء إحساساً غريباً آخر، عجزت عن وصفه: أهو استسلام للقضاء والقدر؟ ربما هذا جزء من التجربة برمتها.. وأقنعت نفسها أنها ستتغلب عليها... كان هذا الدفء الداخلي مستمراً حين دخل كريس الفراش لينام وهو يضمها بين ذراعيه قائلاً بابتسامة لامست شفتيه فقط:

ـ اشتقت إليك.

استرخت بين ذراعيه متنهدة، وردت بصوت عميق منخفض رزين: «وأنا كذلك».

بعد قليل قالت بنعس:

ـ في بعض الأحيان نكون صديقين رائعين.

ملس شعرها: «أجل».

ـ أتظن أن هذا أمر غريب كريس؟

ـ لا.. وماذا عنك؟

ـ لا أدري لكنني سعيدة..

ـ وأنا كذلك، وليتنا نبقى دائماً صديقين. لكن ما الذي أثار هذا الموضوع؟

حاولت التركيز، لكنها وجدته صعباً خاصة وأن دماغها شبه نائم وجسدها مسحور بسبب وجوده قربها. وقالت:

ـ لا أدري. إنه يريحني فقط.

لم يتفوه بكلمة فترة طويلة، ثم لما كانت على وشك الإغراق في النوم قال:

ـ أنا مستعد للقيام بما يريحك ترايسي مهما كان. ليس لدي خيار آخر حلوتي البريئة..

زادت كلماته في نعاس ترايسي، ثم حاولت بعنف إبعاد سحابة النعاس التي كانت تلفها.. فقد وجدت أن من المهم لها أن تستفهم ما

يعني، أن تسأله، لماذا لا خيار آخر له، ولكن اليوم كله كان قد أرهق جسدها الذي ما يزال ضعيفاً.. واستسلمت للنوم.

بقي الإحساس بالاستسلام للقضاء والقدر يغلفها في الأسابيع التالية، إضافة إلى أقوال كريس التي طالما فكرت فيها وتساءلت عنها. ترى لماذا لا خيار له؟

قطع صوت كريس الأجش عليها أفكارها في صبيحة أحد الأيام عندما كانا يتناولان الطعام.

- ترايسي باربرة تشسترتون!

- آسفة! كنت بعيدة بأفكاري أميالاً.. هل ارتكبت غلطاً؟

- ولماذا تتصورين أنك ارتكبت غلطاً.

- حسناً.. لقد ناديتني مرة من قبل «ترايسي باربرة تشسترتون» وفي تلك المرة لم تكن راضياً عني.

رفع حاجبيه يتساؤل:

- ربما كنت ساعتئذ غاضباً.

- جداً.

ارتجفت قليلاً وهي تحدق إلى طبق الطعام الذي لاح فيه عينان صفراوين، ثم رفعت رأسها بخوف:

- لكن يجب أن أعترف.. أنه كان لك أسباب وجيهة.. ولذلك سألت الآن هل ارتكبت غلطاً؟

- لا.. إلا إذا وصفت انغماسك في التفكير غلطاً.

راقب ردة فعلها بعينين ضيقتين، وكأنه يمازحها.. السؤال طبعاً ما زال هناك ولم يتلاشى قط لكنه كان لطيفاً معها لتتعافى..

نظرت إليه فاغرة فاها، ولكن عقلها رفض التفكير بكل حماقة، حتى رفض ما يشبه نفاد الصبر في عينيه قبل أن يقول:

- كنت أحاول القول لك إننا سنستقبل زواراً الليلة على العشاء.. إنها لينورا سينكلير وقد أبدت رغبتها في رؤيتك وأظنك ستعجبين بها.. إنها وحيدة وتحس بالوحشة في الوقت الحاضر كما تعلمين.

ابتلعت ترايسي ريقها بصعوبة:

- أوه.. أجل.. أجل.. أتصور هذا.

* * *

Aml
www.liilas.com

٨ ـ أحزان من نوع آخر

ارتجفت السيدة بريتونز من فرط الإثارة حين أبلغتها ترايسي الخبر بعد الفطور وقالت:

ـ أوه.. تصوري هذا! لقد تساءلت عما إذا كان سيصطحبها إلى المنزل أم لا.. أعني.. حسناً، كانت ابنة عم لي تعمل عندها وقد أخبرتني أن كل شيء كان يتم بشكل رائع عندهم!

ردت ترايسي بهدوء:

ـ أظن أننا نقوم بالأشياء بشكل رائع نحن أيضاً.. لكن دعينا..

ترددت، فهي حتى الآن لم تحاول التدخل في مجال سيطرة السيدة بريتونز على إدارة المنزل، لكن للسيدة قدرة هائلة.. فلماذا أزعج نفسي..

سألت السيدة: «ماذا؟»

ـ كنت سأقول دعينا نطلق العنان لأنفسنا، فلدي بعض الوصفات الرائعة.

بدت السيدة بريتونز مصدومة، لكن وجهها أشرق بابتسامة.

ـ لماذا لا! فلنرهم.

فيما بعد قالت بإعجاب متصاعد:

ـ لم أكن أعلم أنك طاهية ماهرة ترايسي! كان يجب أن تخبريني.

ـ لست مدربة كفاية وربما نجاحي هو من قبيل حظ المبتدئين.

ـ حسناً.. لا أدري فطائرك خفيفة، والآن أظن أننا أنهينا كل ما نستطيع عمله.. الطعام جاهز للفرن والحلوى وقوالب الفاكهة والكريما أيضاً. أين الكريما؟ لا تقولي إننا نسيناها!

ـ أنت لا تنسين شيئاً.. إنها مخفوقة ومرضوعة في البراد.

نظرت السيدة إلى ساعتها:

ـ طبعاً.. أنت على حق! ولقد انتهينا قبل الموعد المحدد بكثير.. لذا لم لا تصعدين إلى غرفتك فيما أنظف البيت؟

ـ لكنني..

ـ نفذي ما أطلبه منك ترايسي. فلو كان كريس هنا لقال الشيء نفسه وما كنت لتجادليه، فكما تعلمين لم يمض وقت طويل على إجهاضك.

انتفضت ترايسي من وخز ألم داخلي، وتساءلت عما إذا كانت ستتغلب يوماً على هذا الألم الذي يخز قلبها كلما فكرت في ما فقدت وغطت في النوم وهي تفكر في الموضوع.

استيقظت بعد ساعة فوجدت أن آخر أشعة الشمس تلملم فلولها، وأن زهر الليمون يعبق في الهواء. بقيت مستلقية مدة ما وهي تشعر بشيء من الفزع في معدتها بسبب ما تترقبه الليلة. ثم فكرت لا إرادياً في والدها الميت الذي فقد أيضاً حبيباً ووجدت في تذكره سلواناً وعزاء.

تمهلت ما وسعها من وقت لانتقاء ملابسها من بين المجموعة التي أصبحت الآن واسعة، وكان أن استقرت أخيراً على فستان رمادي لا أرداف له وهو من الحرير الناعم فيه أزهار خفيفة ملونة بالليلكي والأخضر الشاحبين وله ياقة ضيقة مرتفعة، وحزام فضي عريض.

كانت المرة الأولى التي ترتديه فيها، وتفرست في صورتها في المرآة، وأعجبها ما رأت.. فالحزام الفضي كان يبرز نحول خصرها، والألوان الفاتحة تظهر بشرتها لامعة مثيرة. وبدت عيناها رماديتين ساحرتين واسترسل شعرها الأسود كقبعة سوداء ناعمة لامعة. أخذت هدية كريس، ولاحظت بسعادة أن الخيوط اللؤلؤية تبدو جميلة جداً أمام الرمادي والليلكي والأخضر.. وأكمل شكلها الرائع حذاء فضي مرتفع الكعبين.

لوت رأسها إلى جانب واحد، وتمتمت عالياً:

ـ ليس سيئاً.. ليتني أبدو.. قليلاً..

ـ في الواقع تبدين جميلة جداً.

قطع عليها صوت تناهى إليها من الخلف أفكارها، فاستدارت وقلبها يغوص، واحمرار خفيف يتصاعد إلى وجنتيها فرأت كريس يستند إلى حافة الباب. وسألها مبتسماً: «ماذا تتمنين؟».

كانت ستقول إنها تتمنى لو أنها أكبر سناً.. ولكنها قالت له بسرعة: «لا شيء. لم أسمعك عندما عدت..».

استقام في وقفته وتقدم إليها يتأمل الفستان.

- كان اختياراً موفقاً.

رفع نظره إلى عينيها، فحبست أنفاسها لما شاهدته في عينيه، لقد شاهدت مثيلاً لهذه النظرة سابقاً مرة ليلة زواجهما، كما رأتها في مرات أخرى، لكنها ما عادت تراها منذ الليلة التي كان غاضباً منها، وأجبرها على التجاوب معه، الأمر الذي يدفعها إلى البرودة والحرارة المتناوبين كلما تذكرت.. وأدركت أن هذا كان أساس مخاوفها المختبئة. إن ما يبعث مخاوفها هو أنها خيبت أمله تلك الليلة وأظهرت صدمة فيما بعد وهي.. حسناً، ربما ما تزال هاوية، أما لينورا فلا تصنف بالهاوية.. وهي متأكدة من هذا..

قبل أن يكون عندها الوقت للاستجابة لتلك النظرة، أو حتى للتساؤل عما إذا كانت تتخيلها، ارتد عنها وبدأ يفك أزرار قميصه، ويقول بعفوية:

- أحتاج إلى حمام، لن أتأخر. لماذا لا تنزلين وتحضرين لنا كوبين من العصير البارد؟

واختفى في الحمام.

نزلت إلى تحت ببطء.. فجأة لم تعد واثقة من نفسها ثم تنهدت وأجبرت نفسها على التركيز على العمل الذي أمامها.

* * *

قالت لينورا بارتلميو متنهدة بسعادة والابتسامة الدافئة تلوح على شفتيها: «ما ألذه!».

أجالت نظرها بين السيدة بريتونز، التي كانت تنظف المائدة، وبين ترايسي ثم أردفت:

- لمن يجب أن أقدم التهنئة على هذا الطعام المعد بشكل رائع؟ أم أنه مجهود مشترك؟

ردت ترايسي «أجل، إنه..».

قاطعتها السيدة بريتونز:

- لا.. سيدتي.. يجب أن أعترف أنه من صنع ترايسي تقريباً.. وهذا ليس كل شيء، فلما حضرته من حلوى الجودة نفسها!

قال كريس وقد أقفلت السيدة بريتونز الباب وراءها:

- هذا تقدير عظيم لك ترايسي.. التأثير في لينورا أمر والتأثير في السيدة بريتونز أمر آخر. والأهم أضطرارها للاعتراف بكامل إرادتها.

ضحكت لينورا فبانت أسنانها البيضاء الناصعة:

- أوه يا عزيزتي.. أهي هكذا؟ السيدة بريتونز؟

قالت ترايسي ضاحكة:

- حسناً.. ليس في الواقع.. ومن الصعب الشرح.

قال كريس:

- ترايسي تحاول التواضع.. إنها موهوبة في اختراق قلوب الناس.

قالت لينورا بهدوء:

- أستطيع تصديق ما تقول.. سعيدة أنا بالتعرف إليك عزيزتي.

- وأنا أيضاً.

ودت ألا يظهر الارتجاف في صوتها لأنها كانت تقول الحقيقة.. فقبل أن ترى هذه المرأة لم تعرف بما ستشعر تجاهها ولكنها بعد أن قابلتها وجدت نفسها معجبة بها وصافحتها حقاً..

فلينورا لم تكن رائعة فحسب، بل كانت دافئة وودودة وعندها طريقة خاصة يستحيل معها ألا يشعر جليسها بالراحة.

كانوا يجلسون على الشرفة يتناولون القهوة ووجدت نفسها تدرس ضيفتهما بطريقة غير مباشرة. كانت تقريباً بطول كريس ولكنها نحيلة كفتاة صغيرة وكانت بشرتها صافية وجميلة وعيناها خضراوين فيهما بريق محدد. لكن هذا قليل.. فهي تشع حيوية وحولها هالة من الذكاء.. لكنها

كانت أحياناً تبدو حرة من دفاعاتها فيظهر الحزن والتعاسة في عينيها فتلمس بنظرتها قلب من يراها.

سألت ترايسي نفسها بعجب: ألهذا لا أشعر تجاهها بالراحة، فلا أثر يدل على أنها ما زالت تحب.. لا شيء يجعلني غير مطمئنة أو محرجة.. لا شيء.. ثم.: تهاوى كل عالمها متحطماً..

كانت قد دخلت لتحضر المزيد من القهوة، بعدما أعفت السيدة بريتونز من واجباتها بعد العشاء، وعادت بصمت فوراً إلى غرفة الجلوس، لتقترح عليهما القهوة الإيرلندية. لكن كلمتين أوقفتاها مسمرة في مكانها.

كانت لينورا تقول بنعومة، لكن بيأس: «آه كريس!».

ثم سمعتها تردف:

ـ أفكر في ما أضعناه على أنفسنا.. على الأقل أنا أضعت الكثير من الوقت.. وانتهى بي الأمر على ما أنا عليه.

رد كريس بصوت هادىء جاف:

ـ أعرف.. وأنا آسف..

ـ لا تكن آسفاً فما من أحد كان يمكنه أن يعرف.. فلتتكلم عن ترايسي بدلاً من هذا.. إنها جميلة حلوة و...

لا..!

وضعت ترايسي يديها على أذنيها وعادت بسرعة كما أنت..!

لا تتكلما عن ترايسي.. لا أطيق أن تتكلما عني فكلاكما لم يكن لأجل ترايسي..

وقفت في المطبخ، واتكأت على الباب خافقة القلب، يضج في أذنيها رنين غريب. آه يا الله. آه! لا! لا أستطيع أن أصدق، ولا أريد أن أصدق الآن.. لكن.. ماذا قالت لولا؟ نعم قالت حين تجدين الدليل سيقع على رأسك.. وها هو الآن قد وقع على رأسي...!

همست لنفسها، تحس بالدموع تتدفق على خديها:

ـ لكنني كنت أعرف هذا، وأعرف أن الدليل سيقع على رأسي. كنت أحس بذلك، خاصة حينما فقدت الطفل. أجل.. أظن أنني عرفت

ساعتئذ أن أمامي خياراً واحداً.. وأنني لم أعد قادرة على الادعاء لنفسي بأن لا خيار لي فيما يخص كريس.

حين عادت للظهور تحمل القهوة سألها كريس:

ـ هل أنت على ما يرام ترايسي؟

ـ عظيمة! آسفة للتأخير.. هل ظننتما أنني ذهبت إلى البرازيل لإحضار حبوب البن؟

***

بعد أسابيع.. تعجبت ترايسي من سهولة الابتعاد عن كريس بعدما اتخذت قرارها. وكان القدر إلى جانبها، مثلاً: بعد اتخاذها القرار، وعدم معرفتها سبيل تطبيقه، كانت تنظر في قسم الإعلانات عن وظائف شاغرة في الصحيفة فوجدت إعلاناً يقول: أم لثلاثة أطفال تطلب يائسة مربية ومعلمة في آن لفترة مؤقتة.. أعمار الأطفال تتراوح بين الثامنة والثالثة والرابع على الطريق.. نحن نعيش في منطقة زراعية معزولة، ولكن من ستتقدم للعمل وتنجح، ستعامل كفرد من أفراد العائلة، الرجاء الاتصال على رقم منطقة «كابرنز» والمكالمة مدفوعة..

واتصلت ترايسي، وحصلت على الوظيفة. فقد كانت المربية قد اضطرت لترك عائلة «بادمان» لفترة ما، بسبب مرض أحد أفراد عائلتها، وفي اليوم نفسه لوت السيدة بادمان كاحلها فساءت الأمور أكثر.. وانشغل والد العائلة في أمور طارئة قبل بدء موسم الأمطار.. وبهذا احتاجت العائلة إلى شخص ما مدة ثلاثة أشهر، كانت ضربة أخرى موفقة من القدر.

وهكذا، دبرت ترايسي أمر سفرها إلى «كابرنز» ومن هناك سيصطحبها أحدهم في رحلة إلى داخل البلاد.. وهذا ما حدث. فقد غادرت البيت بعدما تسللت إلى حاملة جياد كانت تقل بعض الجياد للبيع لصالح بارتلميو ووصلت بهذه الوسيلة إلى المدينة.. لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فكلما فكرت في الرسالة التي تركتها، والأكاذيب التي كتبتها، كانت ترغب في أن تدفن نفسها في حفرة وتموت..

بعد أربع وعشرين ساعة، كانت تطل من نافذة شاحنة عملاقة متجهة إلى غلف كونتري كانت ستقلها إلى أملاك عائلة «بادمان» ولم يكن معها سوى ثيابها الخاصة ولم يتبق لها من زواجها سوى خاتمها الذي علقته في سلسلة رفيعة حول عنقها، وصور لشهر عسلها.. لم تكن تصدق ما فعلت حتى وهي جالسة ساكتة تنظر إلى حقول القصب حولها، وهي الدليل الحي على أنها الآن في شمال كوينزلاند النائي وعلى بعد ألف ميل من كريس، ولكن بعدها هذا لم يحرّر قلبها وروحها من الألم الرهيب بل باتت تشك في أنها قد تتحرر أبداً.

يجب أن أتعلم كيف أتوقف عن البكاء كلما فكرت فيه.. وأجهشت بالبكاء، حتى أن سائق الشاحنة التفت إليها مبتسماً كي يتفهم ما بها. وقال بلطف:

ـ أظنك بعيدة جداً عن بيتك طفلتي.. لكن سأقول لك شيئاً.. أفراد عائلة بادمان طيبو القلب وعطوفون فلا تخافي سيحسنوا معاملتك.

اكتشفت ترايسي أنه لم يكن مخطئاً.. فقد كانت مارلين بادمان مرحة دافئة، ولم يمض وقت طويل حتى كانت تعامل ترايسي كما ذكرت في الإعلان، كواحد من العائلة.. وكانت تلك المرأة بحاجة فعلاً إليها لأنها أسيرة الجبيرة وأسيرة حملها الثقيل.

تآلفت ترايسي مع هذه العائلة ولكنها لم تستطع أن تتخلص من الأمل بأن يلحق كريس بها مقتفياً أثرها مطالباً بها وليس ذلك فحسب، بل كانت تحلم بذلك وتتصوره ينكر أنه أحب لينورا سينكلير يوماً. ولكن حتى ذلك الأمل السري تلاشى ومات مع مرور الأيام ولم يعد عندها سوى الذكرى.

فقدت الكثير من وزنها فقلقت عليها مخدومتها التي لم تفتها الدوائر الزرقاء حول عيني ترايسي، ولكن حين قررت مارلين بادمان أن تفاتح مربيتها الجديدة، لتكشف اللثام عما تهرب منه حدث ما بعث ذعراً وخوفاً.

في الواقع بدأ الأمر عندما كانت مارلين تراقب ترايسي وهي تقرأ قصة للأولاد قبل النوم.. كانت تبدو لها صغيرة جداً وجميلة جداً، وحزينة!

فكرت مارلين في نفسها، وهي تترك ثوب الطفل الذي تحيكه من يدها، أن عليها ألا تترك الأمور على ما هي عليه. ولكنها فجأة شعرت بألم.

ما هذا، الأمر غريب، ما زال أمامي أسابيع قبل أن ألد.. ونسيت ترايسي وأمرها. لم يسبق أن ولدت طفلاً قبل الأوان..

تبين أن الطفل كان مستعجلاً لدخول الدنيا، ولا يمكن ردعه عن هذا.. وانقلبت تلك الليلة إلى ليلة لن تنساها مارلين أو ترايسي أبداً.

لن تنسى ترايسي بكل تأكيد ما أحست به في أعماقها بعدما أدركت الموقف. وكان أن تمكنت من الاتصال بروبن بادمان بواسطة الراديو وكان الزوج في مكان ناء يكمل عملية جمع مواشيه، وكان قد أقام منذ برهة المخيم للنوم. فسارع إلى الرد قائلاً إن أمامه ما لا يقل عن خمس ساعات في السيارة حتى يصل وكان يقع منزل أقرب جيرانهم على بعد أميال كما اكتشفت أن الخدمة الطبية المعتمدة على الطيران لن تتمكن من الوصول قبل ساعات.

قال لها صوت مطمئن عبر الراديو:

ـ يمكننا أن نأتي لنوصلكما إلى أقرب طبيب.. لكن الأهم هو أن لا تذعرا.. إن الولادة تقتضي وقتاً طويلاً على أي حال.. ولمارلين معرفة قديمة بهذا.

فكرت ترايسي: حمداً لله على هذا، لكنها قالت بريبة:

ـ لا أظن الولادة ستتأخر وهذا رأي مارلين.

رد الصوت المريح:

ـ إذن سنكون معكما خطوة خطوة!

كانت مارلين قلقة على الأولاد وعلى ترايسي. أما الأولاد فخشية أن يخافوا.. وأما ترايسي فلما ستلقيه على عاتقها.

نظرت ترايسي إليها بعطف ومحبة، تلاحظ قطرات العرق على شفتها العليا.. سحبت نفساً عميقاً وقالت مبتسمة:

ـ إذا استطعت تحمل هذا، فسأتحمل أنا كذلك.. وهذا أقل ما أستطيع فعله..

ثم أجالت نظرها في الأولاد الغارقين بالنوم.

ـ كان روبن يريد مني الذهاب إلى البلدة قبل شهر.. ولكنني اعتقدت أن أسبوعاً يكفي.. أوه!

أمسكت طرف السرير وتأوهت مجدداً ثم استلقت مجدداً متنهدة. فقالت ترايسي بلطف:

ـ لا تفكري في هذا الآن.. أمامنا أمور أخطر لنتجزها!

غسلت وجه مارلين بقماش رطب، وهي تشعر بالدهشة بسبب هدوء أعصابها. ثم عادت إلى الراديو تصف للطبيب حالة مارلين فأتاها رد الطبيب بأن الولادة ستتأخر بضع ساعات وأن المساعدة قد تصل قبل الوضع.

لكن مارلين قالت بقلق إن الأطباء يخطئون عادة في هذا وكانت على حق.. فبعد ساعة بالضبط مسحت ترايسي العرق عن وجهها وقالت لها بصوت مرتجف:

ـ إنه صبي.. ما أجمله! والآن، كل ما عليّ فعله هو.. أوه.. لا.

وبدأ الصبي بالصراخ، فأكملت: «ها قد بدأ بالصراخ بمفرده».

قالت مارلين بسعادة.

ـ صبي! هذا سيسوي الأمور.. أوه.. شكراً لك ترايسي..

ـ لا تشكريني..

وانخرطتا معاً بالضحك والبكاء معاً.. وأكملت ترايسي:

ـ قمت أنت بمعظم العمل.. لكن علينا الآن أن نتعامل مع الحبل السرّي والمشيمة.

أحست بالضعف وهي تصغي للطبيب الذي راح يملي عليها تعليماته.. وسألها:

ـ أفهمت هذا ترايسي.. سأكرره لك إذا أردت.

ـ أجل أرجوك.. أظن.. لا أدري، لكنني لا أشعر أنني..

ـ أعرف ما تعنين. وإنها ردة فعل طبيعية.. ولكنك قمت بعمل رائع ترايسي.

بعد عشر دقائق، وضعت الطفل إلى جانب أمه:

ـ هاك.. أليس جميلاً؟ انظري إلى هذه الخدود السمينة.. أطفالك رائعون مارلين.

نظرت مارلين إليها وقالت موافقة:

ـ ماذا سنسميه؟ لو كان فتاة لسميتها ترايسي.. على أي حال اختاري الاسم أنت.. أرجوك.

ـ أنا.. أتريدين هذا حقاً؟

ـ عزيزتي ترايسي.. أجل!

ـ حسناً.. ما رأيك بهذين الاسمين: براين أو كريسبن براين اسم والدي وكريس اسم.. أعني أحب هذا الاسم.

ـ وهذا ما سأسميه.. كريس.. أوه! اسمعي هذا.. إنها طائرة.

وكانت طائرة ولكن مارلين كانت بخير وعلى أفضل ما يرام والطفل صحيح الجسم، فقرر الطبيب عدم نقلهما إلى المستشفى في «كايرنز» خاصة وترايسي معها.

وهكذا كانت آخر أسابيع من إقامة ترايسي مع العائلة نوع آخر من العذاب. كريس بادمان عُمّد وكانت ترايسي عرّابته. وازدهرت صحة الطفل برعاية أمه وترايسي. وكانت كلما حملته تشعر بألم رهيب في قلبها لأنها تتذكر ما خسرته.

قبل انتهاء مدة إقامة ترايسي معها وبعدما استشارت مارلين قلبها قررت أنه لا يحق لها أن تستوضح منها أخبارها ما دامت ترايسي ترفض ذلك. لكن هذا لا يعني أنها لن تبذل ما بوسعها من أجلها. وبعدما استفهمت عما إذا كان لديها خطط مسبقة، تقدمت باقتراح.

ـ لدينا كوخ صغير، قرب «موسمان» وهو ليس كبيراً، لكنه جميل، رائع للراحة وأوقات العطلة. ونحن أنا وروبن نود لو تستخدمينه متى شئت وقدر ما شئت من وقت.

توقفت ترايسي، التي كانت تطوي الحفاضات ونظرت إلى مخدومتها.. ثم قالت:

ـ أنا.. لا أستطيع في الواقع التفكير في ما يمكنني أن أفعله.. لكن...

قالت مارلين بحزم:

ـ دون لكن.. اتفقنا.. سيدبّر روبن أمر توصيلك وسنؤمن لك كل شيء، فلا تقلقي. فهناك ثلاجة في المكان.. لكن ثمة أمر واحد آخر إياك وعدم الاتصال بنا ترايسي!

ردت بتوبيخ ساخر:

ـ أنظنين أنني قادرة على عدم مراسلة أهل طفل كنت أنا إشبيته؟

وتقدمت لتعانق مارلين وتقبلها بحرارة قائلة:

ـ شكراً لك.. اسمعي.. لقد تكلمنا عنه وأظنني أسمعه.. وبما أنه نام مدة أربع ساعات فهو لا شك الآن غاضب وجائع!

ضحكت مارلين: «لست مخطئة في هذا!»

* * *

ـ ترايسي!

تسمّرت ترايسي، ثم نظرت إلى ما حولها وهي لا تصدق. كان الشارع الرئيسي في مدينة «كايرنز» يلمع بالألوان والحركة، وكان هذا اليوم صافياً وحاراً. كانت وسيلة النقل التي استخدمتها شاحنة جبارة تتجه إلى «كوكتاون» وهي الآن تشتري بعض المؤن، وأمامها ساعة قبل الانطلاق مجدداً من «كايرنز» إلى «موسمان».

ـ ترايسي؟

ناداها المنادي باسمها في الشارع المزدحم العريض، وما هي إلا لحظات حتى كان السيد نيوتن أمام ناظريها يجتاز الطريق بين السيارات غير مهتم بحياته.

سحبت نفساً عميقاً، وما هي إلا دقيقة حتى كان قربها على الرصيف وكانت أولى كلماته:

ـ يجب أن أنفض الحياة من أنفاسك ترايسي تششترتون! أين كنت؟

ولماذا؟

لمعت عيناه، الساكنتان عادة، بشراسة في وجهها، وأمسكها بالفعل من كتفيها، ولكن، حين شحب وجهها، أجبر نفسه على الاسترخاء، وطواها في عناق دافىء.

ـ آه، أيتها الفتاة السخيفة الحمقاء! ما أشدّ سروري برؤيتك!

بكت ترايسي على كتفه رغم النظرات الحارة الفضولية.

ـ وأنا كذلك.

تمتم: «هاي.. لا تبكي.. تعالي».

تركها وأمسكها من يدها ليقودها إلى مقهى مجاور.

أكملت ترايسي قولها، بعد كوبين من القهوة:

ـ ولهذا فعلت ما فعلت.. ألا ترى..

قاطعها السيد نيوتن:

ـ حسناً عزيزتي.. أرى بالفعل، لكنني لا أستحسن ما فعلت. لقد وضعتنا جميعاً في موقف عظيم خاصة كريس.

ـ لكن..

ـ ترايسي.. أنا.. حسناً.. أنا لا أصدق أنه سيشعر بالسعادة وأنت وحيدة في هذا العالم سواء أكان يحب تلك المرأة أم لا يحبها.

قالت ترايسي بتردد:

ـ أنا.. قلت في الرسالة التي تركتها، إنني سئمت الزواج، وإنني أريد أن أكون حرة مرة أخرى، لأرى العالم وما إلى ذلك.. ولا يمكنه لوم نفسه على هذا، ألا ترى.. كنت بذلك أريد أن أترك الطريق مفتوحاً أمامهما، حتى إذا مرت سنة، يمكنهما الارتباط بضمير مطمئن. قلت إنني سأتصل بواسطة المحامي ليرتب الطلاق وقلت كذلك، إنني ظننت أنني أحبه ولكنني عدت فاكتشفت أنني كنت مسلوبة اللب به كما قلت له إنني كنت صغيرة جداً لأعرف ما هي حقيقة مشاعري.. لو عرف حقيقة شعوري نحوه، لما تركني أرحل.. ولكنني لم أتحمل التفكير في ارتباطه بي بينما قلبه مع غيري..! أرجوك! قل إنك تفهمني.

عبس تيو نيوتن متنهداً متمنياً لو يفهم، وقال:

- بطريقة ما.. إذا كان ما سمعته صحيحاً. لكن يجب أن أعترف أنه بدا مخبولاً يوم جاء يراني... مع أنني لم أستطع مساعدته.. وأعرف أنه طاف المنطقة كلها بحثاً عنك.

قالت مبتسمة ابتسامة حزينة صغيرة:

- هذا لأنه لا يؤمن بقدرتي على الاعتناء بنفسي.. لكنني اعتنيت بها جيداً؟

نظر إليها، يلاحظ وزنها والظلال الزرقاء المحدقة بعينيها وأوشك أن يقول شيئاً، لكنه غير رأيه وقال:

- أكنت على اطلاع بأمر المرأة قبل الزواج.. ترايسي؟

- أجل.. ولهذا عرفت سبب زواجه بي.

- إذن، لقد خدعتني ترايسي.

- أعرف.. ولكن لم أخدع في الواقع لأنني كنت أريد هذا.

قال وكأنه يوبخها:

- كنت أعلم أن في المسألة خطباً ما. ويجب أن أخبرك، عزيزتي، أنه عندما جاء كريس ليراني بعد اختفائك بساعات تصرفت معه بطريقة غير لائقة.. في الواقع، استمطرت لعنة السماء على رأسه، واتهمته بإساءة معاملتك.

- لكنه لم يسيء معاملتي!

- حسناً.. وهل يعرف بأنك تعرفين كل شيء عن المرأة الأخرى؟

- لا.. هو لا يعرف.. إلا إذا..

توقفت عن الكلام فجأة تتساءل عما فعلته لولا فوكس بعد رحيلها.. وما هو تأثير الأمر فيها؟

- .. لا.. لم يكن يعرف ساعتئذ وأشك في أنه بات يعرف الآن.

صمت السيد نيوتن هنيهة وكان في الواقع في صراع مع ضميره ومشاعره المتناقضة نحو كريس غاليهار.. ثم قال ببطء، وربما بطريقة لا إرادية:

- عزيزتي.. يجب أن تعودي إليه. لا.. دعيني أكمل.. ليس فقط لأنني لا أؤمن بالطلاق إلا في ظروف متطرفة، بل لأنني طوال حياتي آمنت بأن الصدق هو أفضل وسيلة.. لهذا أرى أن عليك أن تعودي إليه لتكشفي أوراقك. كنت تعرفين أن هذا الزواج سيكون صعباً وللأسف الزيجات بمعظمها صعبة في هذه الأيام، لكن الزواج ليس حالة يمكنك الانسحاب منها بسهولة كما تحاولين فعله.. أنا آسف ولكنك مدينة له بالشرح، عزيزتي.

- لكن، ضع نفسك مكاني. فما إن أصدقه القول، حتى يأبى تركي فما رأيك؟

ضحك السيد نيوتن:

- لن يعجبك ما سأقول، لكنني أرى أنه رغم ما ستكون عليه مشاعرك. أنت زوجته، ويجب أن تبقي.

ردت ساخرة:

- على أمل أن يحبني يوماً، وينساها!

- قد يحصل هذا.. عندما ستعودين ستعرفين إن كان فعلاً مهتماً بك.

قالت بحزن:

- أعرف أنه يحبني بطريقة ما أما السبب الأول فإنني ابنة أبي. هل رأيته مؤخراً؟

رد بجفاء:

- لا.. قلت لك ما كنت أشعر نحوه غير أنني أعتقد أن زوجتي تتصل به.

بدا الامتعاض على وجهه، ففي الواقع تشاجر هو وزوجته بعنف بشأن الطريقة التي عامل بها كريس. وهما الآن يتجنبان الموضوع! يا إلهي! كم أصبحت شخصاً مشاكساً مجادلاً.. ربما حان الوقت لأمارس شيئاً من التعقل.

- هل ستخبره بأنك قابلتني؟

جذبته كلمات ترايسي من أفكاره، وقطّب:

ـ أنا.. لم أفكر في المسألة. لا... أظن أن الأمر عائد إليك. ماذا تفعلين في «كايرنز» على أي حال؟

قالت له ثم ابتسمت:

ـ كنت سأطرح عليك السؤال ذاته.

ـ أنا في طريقي إلى جزيرة «تورزداي» لأحضر افتتاح معرض لبيع الجياد.

فجأة ساد صمت قصير متوتر، وفكرت في ما قاله صديقها العزيز، وعرفت أنه ما زال ينتظر ردها.

ـ أنا.. سأحاول.. سأفكر في الأمر.

ـ جيد.. أثق بك ثقة عمياء ترايسي. أعرف أنك ستجدين الشجاعة لتفعلي ما هو صواب.

تمتمت بإحراج:

ـ هذه ضربة ممنوعة.. لا أدري إن كنت أملك هذه الشجاعة. مع ذلك، أعدك، بأن أفكر في المسألة. وشكراً لك لأنك لم.. تعاملني كطفلة.

ـ آه.. لكنني لن أدعك تخرجين من هنا دون أن أنتزع منك وعداً آخر! وهو أن تتصلي بي وبزوجتي، مهما كانت الظروف.

ـ أعدك بالاتصال. آه كدت أتأخر..

بعد دقائق راقبها السيد نيوتن تشق طريقها بين الطاولات، وتنهد يسأل نفسه: أفعلت ما هو صواب؟ أكان يجب أن أتركها تبتعد مجدداً؟ ولكنني أؤمن بأن عليها اتخاذ قرارها بنفسها.. لقد نصحتها نصيحة.

نظر أمامه، ولم يشاهد وعاء الملح أو الفلفل، أو وعاء السكر الخاص الذي يخرج منه ملعقة أثر ملعقة، ونادراً ما ينجح.. بل شاهد أمامه السيدة نيوتن بعينيها الهادئتين، وفكر مجدداً بالعرض في جزيرة «تورزداي» فإذا هو آخر ما قد يفكّر فيه وهو على خلاف معها..

يقول البعض إن الحب أمر مخادع.. ولكن كان كلانا على حق. كنت على حق حينما قلقت وكانت على حق حينما قالت إن ترايسي تثقل

ضميرها.. إذن لماذا لا أتصل بها وأقول لها إنني أحبها، مع أنني عنيد ومشاكس؟ مد يده إلى جيبه ليخرج النقود المعدنية الصالحة للاتصال بالهاتف.

* * *

٩ ـ هل تعود السيدة ماما؟

استغرق الوصول إلى قرار ستة أيام من التنعم بالهدوء وبجمال منطقة «موسمان».

كان الكوخ الصيفي يقع في مكان منعزل، لا ترى فيه احداً، وكانت ممتنة لهذا.. فقد فاجأها الاحساس بسكون الحديقة الاستوائية ذات السلالم الحجرية المؤدية إلى الشاطىء، ما أشد تعبها! كانت تنام ساعات في النهار، هذا عدا النوم ليلاً.. وكانت تسبح في الصباح الباكر، حين يكون البحر أزرق كالزبرجد الشاحب، أو بعد الظهر حين تكون الحرارة ثقيلة الوطء فوق اليابسة، وقد نهبت بدون خجل شجرة مانجا وجلست ساعات تحت ظلها الكثيف الحامي، تحدق إلى البحر الساحر.

فكرت مراراً: هل يمكنني العيش هنا؟ ربما إن استطعت إيجاد طريقة اكسب منها رزقي. أيمكن أن أجد عملاً في البلدة؟ لكن، من غير الممكن العيش في الكوخ إلى الأبد!

كانت هذه الأفكار التي تساورها، ولكنها لم تستطع إجبار نفسها على التفكير بكريس رغم وعدها.

ثم، وفي اليوم السادس، حلت المسألة لها بطريقة غير متوقعة..

كانت قد أرسلت رسالة إلى مارلين بادمان تخبرها أنها وصلت بسلام، وبعد خمسة أيام تلقت رداً في رسالة مطولة، مليئة بأخبار أولادها. لكن الجزء المفاجىء، جاء بعد هذه الأخبار فقد ذكرت أن صديقة مارلين بحاجة إلى سكرتيرة ومرافقة.

ـ كنت والين في مدرسة واحدة.. وبقينا على اتصال دائم ربما سمعت بها، انها كاتبة قصص أطفال، وهي مشهورة في هذا المضمار.

والخلاصة أنها أتت تراني يوم سفرك. وأثناء الزيارة ذكرت أنها تبحث عمن تعمل عندها. وفكرت فيك لأنني تذكرت قولك بأنك تعرفين الطباعة، وحين أخبرتها أبدت السرور.. وبالطبع، القرار النهائي عائد إليكما. ولكن نظراً لمعرفتي بكما أتصور أنكما ستتفقان. ولكن إن كان لديك خطط أخرى...

تخطت عينا ترايسي أسطراً قليلة حتى وصلت إلى النقطة الأهم: آلين تريفور ستعود إلى «موسمان» بعد اسبوعين، بعد رحلة إلى سيدني، وستكون سعيدة بمقابلتك.

تركت الرسالة تسقط إلى حضنها، وحدقت إلى المحيط شاردة الذهن. بدا لها هذا أمراً مكتملاً.. وأحست وهي تفكر بحزن.. انه الرد المناسب لحياة غير مكتملة منذ تركت كريس..

على حين غرة، وكأنما ابواب سد داخلي قد انفتحت، وجدت نفسها تغرق في التفكير فيه، وفي نصيحة السيد نيوتن.. كانت تفكر، وتحاول تقويم كل شيء وانتقاده بتجرد لأول مرة فوجدت في النهاية أن هناك مخرجاً واحداً.. وجواباً واحداً وهذا الجواب جعل الدموع تتدفق من عينيها.

ظلت جالسة هناك حتى حل الظلام، وظن دوري احمق يعيش في السقف أن املاكه لم تعد مشغولة فغط على الشرفة على بعد قدم واحد منها.

وتصاعد البدر كهالة ضخمة ذهبية، يمتد حولها شعاع شاحب راح ينعكس فوق الماء ورغم هذا السحر كله لم تتحرك ولم تر الثعالب الراكضة كالأشباح التي تقفز حول الحديقة قبل أن تستقر في شجرة المانجا.

أخيراً قطع صوت مختلف إحساسها الاعزل.. ربما لأنه غريب فعلاً فلا سبب يدعو إلى أن تقف سيارة قرب باب الحديقة. فهذا الكوخ هو المنزل الوحيد القابع في نهاية الطريق الترابي.. أحست ببعض الارتباك وهي تدير رأسها نحو الصوت فرأت أنوار السيارة الأمامية، والنور

الداخلي حين انفتح الباب، ونزل السائق...

ثم هبّت واقفة، لكنها تمسكت بطاولة الشرفة لتدعم نفسها، وطفق قلبها يضرب كالطبول، وجف حلقها. هل هذا هو حقاً؟ لا!.

ولكنه كان هو. ولم تخطىء في التعرف على ذلك الطيف الطويل القادم على مهل كما أن القمر لم يكن يتلاعب ببصرها ولم تكن هي تحلم أيضاً.

لم تستطع سوى الوقوف جامدة متمسكة بغباء بالطاولة، حتى أصبح أمامها يلقي عليها نظراته.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم قالت بضعف: «كريس؟».

ـ مرحباً ترايسي.

ـ كيف.. كيف وجدتني؟ هل أخبرك؟...

ـ اهذا ما يقلقك؟ كيف وجدتك؟ حسناً سأخبرك. حدث بالأمس أنني كنت أقرأ مجلة اسمها «حياة الريف» وفيها قصة عن السيدة مارلين بادمان التي وضعت طفلها قبل الأوان والتي أشرف على ولادتها مربيتها.. وتابعت القصة تقول: المربية المعروفة في البراري النائية هي ابنة الطبيب براين تشسترتون...

صدر عن حنجرة ترايسي صوت مسموع فسألها بسرعة:

ـ ماذا قلت؟

ـ لا شيء. أرجوك، لا تغضب علي.. لكن..

ـ أغضب؟ الغضب لا يصف أبداً ما أشعر به.

حاولت الابتعاد عنه ولكنه صاح بها يمسك بذقنها:

ـ إلى أين؟ أستطيع قتلك ترايسي، لما فعلته.. جلت بحثاً عنك طول «كوينزلاند» وعرضها.. ثم تجاوزتها إلى أماكن أخرى. وأقسم أنك إن أعدت الكرة سأضعك على ركبتيّ وأضربك حتى تعجزي عن رؤية نور النهار..

نظرت إليه، بوجل ممزوج بعناد مذهل وقالت بجفاء:

ـ لا أفهم. كما أنك لا تستطيع إجباري أن أبقى زوجتك إن كنت لا

أريد. إن كنت تظن أن ضربي سيغير رأيي، فأنت مخطىء. أنا آسفة لأنني سببت المتاعب.. لكنك لو فكرت مرة واحدة أنني راشدة لأدركت أنني قادرة على العناية بنفسي، ولما احتجت إلى إزعاج نفسك.. إياك وتهديدي كما فعلت منذ برهة فلست طفلة صغيرة في المدرسة... والآن عد من حيث أتيت.

رغم كلماتها الشجاعة، أحست أن نبض قلبها تضاعف ثلاثة أضعاف عندما شاهدت لمعان الغضب في عينيه. ثم تلاشى ليقول بلطف هادىء:

ـ أوه؟ إذن.. عليّ أن أجد وسيلة اخرى أو طريقة أخرى أستخدم فيها الرقة للالتفاف على الأشياء.

ترك ذقنها، ثم طافت عيناه في وجهها. فحاولت أن تتكلم ولكنها وجدت أنها غير قادرة، فابتسم لها، لكنها لم تكن ابتسامة مرضية، وكان صوته ساخراً حين قال:

ـ وسأفعل ترايسي، أردت ذلك أم لم تريديه، وفي الواقع، يجب ألا أكون قاسياً لأجعلك تريدين.. وما كان الأمر بهذه القسوة، حتى حين كنت غاضبة مني كما أذكر...

نظر إلى شفتيها مفكراً، ثم إلى طول جسدها. وفي الواقع لو استخدم يديه لاستطاع نزع ثيابها بدون أن تبدي أقل اعتراض.

والأنكى أنه كان يرى في ضوء القمر احمرار وجهها، وضحك لارتباكها وحرجها.. فقالت هامسة:

ـ أوه!.. وهل تظن أنك تمتلكني؟ لكنك لا..

ـ حاولي الهرب ثانية تجدي أن الأمر مختلف.. والآن..

نظر إلى ساعته.. فصاحت:

ـ لا! الآن لا شيء..! لن أعود معك، لا الآن ولا أبداً!

نظر إليها ساخراً:

ـ لم يكن هذا ما أفكر فيه.. كنت أتساءل ما إذا كان بإمكانك تقديم بعض الطعام فلم أذق طعاماً هذا اليوم وكنت سأقترح عليكِ الهدوء لنناقش موضوعنا بروية.

اختبرت ترايسي إحساساً نظيعاً بالظلم مسح كل إحساس آخر.. فصاحت به.

ـ ليس بيننا ما نناقشه.. فأنا.. أكرهك واحتقرك، وكان أفضل ما فعلته في حياتي هو الهرب منك.. فأنا..

صمتت تتراجع إلى الوراء حين تقدم إليها ثم قالت بصوت مختلف اللهجة، منخفض ومرتجف: «كريس...».

ـ بلى ترايسي لا تقاوميني.

ولكنها قاومته، حاولت الفرار، لكنها تعثرت وأحست بذراعيه حولها فصاحت: لا!.. وتلوّت بين يديه لكنه أمسكها وأستدار بها إلى الوراء، وما أن اصبحا داخل الكوخ حتى ألقاها على الأريكة دون أن يزعج نفسه في البحث عن غرفة النوم.

التقطت أنفاسها، وتحركت بعنف، لكنه جلس إلى جانبها وسمّرها فوق الأريكة بحيث عجزت عن القيام بشيء ولكن دموعها هطلت على وجهها مع أنها حاولت ألا تجعله يشعر بالرضى وهو يراها باكية.. فجأة استرخت وتلبد إحساسها.. عضت على شفتها وأغمضت عينيها، فهي لم تعد قادرة على رؤيته ينظر إليها باكتئاب، وعرفت أنها لن تستطيع مقاومته... لكن مقاومة ماذا؟

فكرت بيأس ربما لهذا السبب لا أستطيع أن أجد السلاح الذي احاربه به.. لأنني في الواقع لا أريد أن احاربه أبداً؟ ولكنني قاومته.. قاومته.. آه، لا تفعل بي هذا كريس!

اتسعت عيناها عندما شعرت بأصابعه وقالت بصوت مرتفع ما قالته في سرها:

ـ أرجوك، لا تفعل بي هذا، ولا تعاملني بهذه الطريقة مرة أخرى.. أرجوك.. لا تفعل.. فأنا..

لكنها وجدت نفسها غير قادرة على المتابعة.. ونظر إليها طويلاً فقد آلمه منظر جسمها المسترخي أمامه.

ارتفعت عيناه إلى عينيها...

ـ حسن جداً.. لن أعاملك بهذه الطريقة، شرط أن تقنعني بأن كل ما كتبته في رسالتك صحيح. هلا أقنعتني ترايسي؟

جمدت تحت يديه، وتبادلت عيونهما النظرات ثم لم تلبث أن سحبت نفساً عميقاً مرتجفاً وفكرت في أن هذا الموقف يشبه الغرق. وهمست: «لا، لا أستطيع!».

ـ لماذا؟

ابتلعت ريقها:

ـ لأنني كذبت.. وأنا آسفة.. غير أنني وجدت في الكذب خير وسيلة.

حدقت إلى السقف وراح نبض سريع ينبض في أسفل عنقها فتحركت يداه بلطف إليها وقال بصوت مضطرب: «لا ترايسي».

ـ بلى.

نظرت إليه بوهن. ما السبيل لأفهمه موقفي؟ ربما السيد نيوتن على حق، إن الحقيقة وحدها قد تنجح!

رفعت يدها عن غير وعي تمسح وجهه، وسحبت نفساً عميقاً:

ـ أترى.. أعرف كل شيء عن لينورا سينكلير وعندما عادت.. حسناً.. ظننت أن رحيلي هو أفضل حل لك ولها ولكنني أعرف الآن أنه كان أفضل حل لي، حقاً. فأنا لم أستطع أن أكون شخصية ثانوية في حياتك ربما تظن أنني أبالغ في الأمر وأعرف أن السيد نيوتن يفضل لو أدفن هذه الأفكار وأحاول أن أكون زوجة صالحة لك. ولكنني لا أستطيع. ولا أظن انني كنت سأستطيع حتى وإن لم تظهر لينورا.. فهل السبب الكبرياء؟ لا أدري. ربما الكبرياء خطيئة ولكنني لا أريد أن أكون بالنسبة لك ابنة صديق عزيز وطفلة توقع نفسها في المتاعب دائماً بل أريد أن أكون حبيبة قلبك..

لوى ما يشبه الابتسامة على شفتيه:

ـ ستبقين كل هذا بالنسبة لي، ولن أستطيع تغيير شيء.. إنما..

قاطعته بصوت متوتر تحاول يائسة أن تحوّل ما في روحها إلى

كلمات:

ـ إذن.. أترى لماذا لا أستطيع العودة؟ أرجوك قل إنك تفهم! ولنبق صديقين. ألم نتفق مرة على أن نكون صديقين طيبين؟ وأظن أن هذا قدرنا أما الحب فليس جزءاً من هذا القدر.

آه يا الله! هل سيكون لي القدرة على مثل هذا؟ لكن ربما تكون هذه الطريقة الوحيدة التي ستتركني فيها وشأني.. بعد لحظات قال:

ـ ترايسي.. ثمة ما لا تفهمينه.

عندما مسح شعرها أجبرت نفسها لئلا تتألم، وهمست.

ـ بلى، أفهم.. وأعرف ما ستقول. تظن لأنك الأول في حياتي، أنني سأظلّ خائفة حتى آخر العمر. لأننا لم.. لأن...

سحبت نفساً عميقاً سعياً للكلمات، فسألها:

ـ ألن تخافي؟

دس ذراعه حول خصرها وجرّها إلى حضنه فقالت: «لا».

ولكنها دفنت وجهها في كتفه. فقال: «حسناً، أنا من سيخاف!».

وأمسك يديها ليمنعهما من الارتجاف ثم أردف:

ـ لأنني لن أتحمل فكرة ألا يكون لي الحق بأن أحبك، ولا ولن أستطيع العيش أبداً مع فكرة أن تعيشي مع شخص آخر يحبك. هذا ما اكتشفته في ليلة من الغضب المشتعل. ولهذا السبب كنت أؤلمك حينما كان عليّ أن أولمك.. لأنني أردت أن يكون لي الحق الوحيد والحصري في ترايسي باربرة تشسترتون.. في الفراش وخارجه.

تسمّرت عيناه السوداوان على شفتيها اللتان انفرجتا بذهول، ثم تحركتا إلى عينيها النجلاوين وابتسم:

ـ ولهذا يجب أن تعودي إليّ.. أترين سيدة ماما؟ هل شككت ابداً في هذا؟

استلقت ترايسي مخدرة بين ذراعيه لا تقوى على الحراك، فأخذ يمرر أصبعه على شفتيها، وقال:

ـ لماذا هذه الصدمة على وجهك؟

لعقت شفتيها:

ـ أنا.. أنا.. لكن لماذا لم تبح لي بذلك من قبل؟ ولماذا لم تحدثني عن لينورا. سمعت...

صمتت عندما رأت أن شيئاً ما يتغير في عينيه.

قال «إذن، لقد سمعت شيئاً».

هزت رأسها إيجاباً وبؤس، وقالت باكية:

ـ لم أقصد التنصت.. كنت عائدة لأسأل ما إذا كنتما تفضلان القهوة الايرلندية...

قال وكأنما يحدث نفسه:

ـ لولا كانت على حق.. ما أشد غبائي!

رفع رأسه مفكراً، ثم نظر إليها:

ـ لقد أسأت فهم ما سمعت ترايسي..

وضع أصبعه على فمها يسكتها:

ـ لا.. لم تكن غلطتك بل غلطتي.. مع أن لولا تشعر بذنب فظيع ولكنها لم تكن لتعرف. كانت المشكلة مشكلتي أيضاً أترين؟ لم أكن على معرفة باطلاعك على علاقتي بلينورا سينكلير... وفي الواقع لم أكن لأعرف أنني ولينورا وفرنا مادة لمثل هذا القيل والقال، وإلا لاعترفت لك.. ربما عليّ أن أخبرك في جميع الأحوال.

ـ.... إذن.. لم يكن صحيحاً..؟ أعني القيل والقال؟

لا شك في أنني أرى في منامي ولا ريب في أنني سأستيقظ قريباً.

ـ أوه.. بل كانت صحيحة.

لعقت شفتيها.. ها هي الحقيقة قادمة!

ـ وقعنا في الحب... لكن ما لا تعرفه الشائعات، أننا تخلصنا من هذا الحب. ربما لم تكن علاقتنا صحيحة منذ البداية، ولو قال لي أحدهم هذا يومذاك، لما صدقته. لكنني أستطيع الآن أن أفهم أن لبعض المسائل الأخرى وزناً أيضاً.. في ذاك الوقت أحسست بالمرارة وبالذل لأن عائلة آل سينكلير رفضوني لأنهم لم يجدوني أهلاً لابنتهم. وأحست لينورا

بالمرارة أيضاً، بسبب الطريقة التي عالج فيها أهلها الموقف. . فقد هددوني بالويل والثبور وبالعواقب الوخيمة إن تزوجنا وكان أن استسلمت وتزوجت بريتشارد بارتلميو. . لأنها لم تعد تهتم بمن تتزوج. ولكنها اكتشفت أنه خيار صائب، مع أن الوقت طال بها لتتأقلم مع الموقف.

فغرت ترايسي فاها، فمسح شعرها وأكمل:

ـ أجل. . ولم تمض فترة حتى وقعت في حب زوجها. وحين مات كان من الطبيعي أن يلاحقها الذنب على ما أضاعته من وقت، وما اجبرها أهلها عليه، ليعذبها من جديد.

مسحت دموعها، وابتلعت ريقها بألم:

ـ آه، لا. يا للمسكينة هذا ما قصدته بقولها إنها أضاعت وقتاً طويلاً وقلت أنت لها «آسف»؟ ظننت. . ظننت. . .

ـ أعرف. . على الأقل ارتبت بالأمر.

همست: كيف؟

ـ الشكر للولا. . بعد هروبك، أخبرتني بأنك عرفت بقصتي مع لينورا منذ البداية. وأصرّت لولا أن أمراً ما حدث فظننت. . وهذا ما جعلني أعيد ذكريات ما جرى بدقة. . وتذكرت ذهابك لإعداد القهوة والوقت الطويل الذي احتجته لاعدادها كما تذكرت وجهك الكئيب وملامحك الغريبة، وتذكرت ما كنا نتبادل من أقوال، وكيف، وبناء على ما قالته لولا، وكيف يمكن أن يبدو ما قلناه لك. . وحده الأمل منعني من الجنون في هذه الأشهر الأخيرة. . .

مرر أصابعه على عنقها وترك راحة يده تستقر حولها. . وأردف بصوت هادىء:

ـ فيما بعد لم أصدق كلمة على الرغم مما قالته غريس. .

ـ لكنك صدقت. . أعني. .

ـ صُعب علي في بعض الأحيان ألا أصدق، فلم أكن أعرف أنك ممن يكذب، ولكنني لم أفهم سبب إخفائك أمر الطفل مثلاً. . . لذلك فكرت في ما تعرفينه عن حبي للينورا وقلت إن سبب رحيلك هو هذا الوهم بأنني

أحب غيرك ثم تصورت صدمتك عندما حملت بين أحشائك ذاك الجنين المسكين. . أعني من الجيد أن يحلم المرء بالأطفال. . لكن في الواقع قد يكتشف أنه وقع في فخ. .

تحركت ترايسي بقلق:

ـ لم يكن الأمر كما تصف. . أردت الطفل أكثر من أي شيء آخر. لكنني كنت أعرف أنك تظنني غير مستعدة بعد له. وعندما خسرته، أحسست بأن القضاء والقدر يضع حداً للأمور، وكأنما كان هذا هو سبيل الخلاص للجميع.

ـ لماذا فكرت في هذه الطريقة؟ أعني بالنسبة للطفل وعدم استعدادك للإنجاب.

أخبرته أنها سمعته يتحدث إلى توم ليلة حادثة اللبوءة.

سألت: «ألا تذكر هذا؟».

ـ ترايسي، حبي، لم أقصد ما فهمته بقولي.

ـ ظننت هذا في ثورة غضب.

ـ أجل. . كنت غاضباً ولكن السبب شعوري بأنني كنت أوشك أن أخسرك والتفكير فيّ هذا يفعل لي أمور غريبة لكن عندما تحدثت عن الموضوع فيما بعد، كان لأسباب أخرى ربما من بينها عقدة الذنب التي لازمتني منذ عرفتك. . سألتني منذ برهة لماذا لم أبح بمشاعري التي أكنها لك. في الواقع اعترفت لك مرة بحبي ولم تصدقيني.

ـ لا أذكر هذا.

في صوته ما جعلها ترتجف:

ـ ألا تذكرين أنك جئتني صباح يوم تحاولين إقناعي بعدم الزواج؟

ـ أجل. . لكن. .

ـ وهل تذكرين أنني سألتك إذا كنت ستصدقيني لو قلت لك إنني وقعت في حبك؟

حبست أنفاسها وبقيت جامدة، فمسح الدموع عن وجنتيها وأردف:

ـ لو كنت حبيبتي تقرئين الأفكار لعرفت أنني، أثناء نقاشنا الذي دار

حول كيلي هنتر، وحول الرجال عامة كنت منجذباً إليك. وكان انجذابي وضعاً ساخراً وهذا ما يجب أن تعترفي به... أجل.. كنت في محنة حقيقية، مع أنني أعترف بأنني حتى تلك اللحظات، كنت أعتقد أنني أعالج الأمور بشكل صحيح وأقنعت نفسي بأنك صغيرة جداً لتعرفي شيئاً عن الحب، وأنك دون شك ستذعرين إن عرفت كيف أفكر فيك أحياناً وكنت أرى أنك بحاجة إلى الوقت وإلى فرصة لتفردي فيها جناحيك بل قلت لنفسي إنك بحاجة لتتعلمي المزيد عن الرجال قبل أن أتوقع منك النظر إلى قلبك واتخاذ القرار في الحب وعدمه. لكنني اكتشفت ان مجرد التفكير في أنك تتعلمين من سواي، لم ترق لي.

ـ لكنني..

ـ أعرف.. لم يكن هناك مجال لتعرفي لأنني أخذت الحيطة والحذر لئلا تعرفي... لكنني لم أكن أعرف أنني سأقع في شر أعمالي، ثم ألا ترين أنني أعاني مشاكلي الخاصة أيضاً. فقد كنت في السنوات الماضية فخوراً بعزلتي وبابتعادي عن إقامة العلاقة الجادة مع النساء، ليس لأنني كنت ما أزال على حب ليتورا، بل لأنني كنت... متعباً كما أظن.. وعندما وقعت في حبك علمت أنني تخطيت حاجز التعب هذا وامتلأ قلبي بهجة لأنني وجدت الحب الحقيقي مع أنني لم أنس المأزق. عندما دخلت حياتي حاولت إقناع نفسي بأنني لا أقع في الحب.. وفكرت أنني بعد هذه السنوات وبعد أولئك النساء اللاتي عرفتهن، لا يمكن أن أقع في الحب وصدقت هذا الوهم ولكن عندما عدت من العاصفة تلك الليلة، ورأيت ما فعله دان رانكين بك، عرفت أنني أحبك. شعرت بتلك اللحظة بأن علي أن أقتله وعرفت أن عليّ أن أحميك من هذا الشر لأنني لن أقوى عليه صبراً. ومن سوء الحظ كان لدي ميل لـ.. لا أدري ما قد تسمينه ولكن والدك كان يعرف مني هذا الجانب.

همست: «تقصد ميلاً غير مروّض».

ابتسم.

ـ ربما.. ولكنه سيبقى موجوداً. آترين، لم آسف فيما بعد.. وكنت

أعلم منذ عانقتك في بستان الليمون، أن نفسي ترعى حلماً رائعاً لكنني لم أكن آسفاً. لم أكن آسفاً على زواجنا ولم أشعر بالأسف إلا لأنك لم تعرفي حقيقة مشاعري ولم تصدقيها أيضاً.

ـ وظننت أن مشاعري التي أكنها لك مشاعر فتاة مراهقة ولكن هذه المشاعر تتغير.. كريس...

ـ لا تجعليني أشعر بأنني أسوأ حالاً..

ـ لا.. كنت سأقول إنني في بعض الأحيان أحسست بأنني صغيرة جداً بالنسبة لك، وأحسست أحياناً بالخجل والسذاجة... وفي تلك الليلة، أثبت لي أنك قادر على امتلاك مشاعرك حتى وأنا في غضب شديد وعندها تملكني اليأس.

أمسك بيديها:

ـ ترايسي.. تلك الليلة غضبت غضباً شديداً وسيطر عليّ يأس كبير وعوضاً عن الاعتراف بحبي العميق لك بالكلمات، قررت أن أظهره لك بالأفعال لا بالأقوال ومع مرور الوقت ظننت أنني نجحت.. ثم تغيرت ولم أعرف السبب، فعزوت الأمر إلى صغر سنك وإلى رغبتك في فرد جناحيك، لذلك كنت غاضباً ومحبطاً. ولكن ما لم يعلمك إياه الوقت هو أن العلاقة بين رجل وامرأة طريقة مميزة للتعبير عما في نفسيهما من حب. لذلك فهذه العلاقة الحميمة عادة تعبر عن توترهما ومخاوفهما إضافة إلى حبهما وحنانهما وهي مسألة ليست ثابتة، ويجب ألا يشعر المرء بعقدة الذنب من أجلها حتى وإن كان التجاوب اثر غضب شديد.. كنا غاضبين تلك الليلة ولكن كان كل منا متأثراً بالآخر. وهذا هو أهم الاشياء.

ـ أتعني، أنك ما كنت لتفعل هذا لو أنك... لو أنك..

ـ لا.. لولا ذلك الإحساس المريع بأنك تتسللين بعيداً عني.. لا..

بقيت ساكنة بين ذراعيه فترة، ثم قالت بصوت مرتجف:

ـ إذن، أنت لا تمانع في أن تكون معلمي وصديقي، ووصيي في هذه الأمور كلها؟

ـ لم أرغب في سوى هذا ترايسي.. صدقيني لأنك إن لم تصدقيني

اضطررت إلى متابعة المحاولة حتى تصدقي.

همست: «آه، كريس. ما كان أشدّ غبائي!».

ـ لا.. ليس أنت.

تعلقت به تبكي على كتفه: «أفكر في المدى الذي مضيت فيه في الكذب وفي مشاعري تجاهك».

همس لها:

ـ ترايسي... انظري إلي.

شهقت:

ـ لا أظنني قادرة! أشعر أنني مثقلة بالخطايا.. لماذا؟

ـ لأنني أريد أن أعانقك.

حين رفعت رأسها، ابتسم لها بحب وحنان ورغبة فارتجفت بين ذراعيه وقال:

ـ ليتك تحبينني كما أحبك، ألا تظنين أننا قادران على وضع خطايانا وراء ظهرينا من الآن وصاعداً؟ خطاياك الخيالية وخطاياي الحقيقية؟

ـ أوه.. إذاً.. حسناً.. أجل... أرجوك.

وكانت هذه آخر كلمات متلعثمة تفوهت بها فترة طويلة عدا اسمه. ظلا جالسين تحت ضوء القمر فوق الأريكة، وكانت تلك الليلة تشبه ليلة الزفاف، لأن ملؤها الرقة والحنان والحنين التي جعلتها تتلظى بالشوق والتجاوب كما كان يحدث دائماً ولكن في هذه المرة كان هناك حب كبير وفرح كثير. ظلا على هذه الحال متعانقين، صامتين ينعمان بوجودهما معاً لأنهما كانا سيفقدان هذه العلاقة، حتى قال:

ـ هناك شيء واحد أود أن أطرحه عليك.

ـ ما هو هذا الشيء؟

ضحك بهدوء:

ـ ليس شيئاً يزلزل الأرض. المسألة أن السيد نيوتن استمطر الجحيم على رأسي، وكان يعني كل كلمة قالها وأظن أن صورتي تحتاج إلى تصحيح في نظره.

عضت ترايسي شفتها تحس بالذنب:

ـ أوه! أنا آسفة.. سيكون هذا أول ما أفعله حين نعود. ويجب أن تعرف أنني أخبرته بأنك تحب غيري.

رد بمرح:

ـ وهذا أمر كاف بالنسبة له.. لكن لا.. أحب أن أسترد احترامه لي.

ردت بسعادة:

ـ سيكون سعيداً.. كريس هذا يشبه حلماً تحقق. ربما يجب ألا أقول هذا ولكن أنا بحاجة إلى أن تذكرني أنها حقيقة بشكل دائم. لذلك لن أغضب حين تغضب عليّ بسبب حماقة أرتكبها.

قال:

ـ قبل أن أبدأ بانقاذك من المتاعب التي تزجين نفسك فيها لم أكن أحس بأنني حي أرزق حبيبتي.. ومع أنني غضبت منك أحياناً، إلا أنني أدركت أن سبب وقوعك في المشاكل هو ضميرك الحي الذي يأبى أن يسلك الطريق السهل كما يفعل معظم الناس... وهذا ميزة أحبها فيك.

لمعت عيناها:

ـ هذا الطف ما قلت حتى الآن. أحس أننا متساويان.. مع أنني...

ـ مع أنك ماذا حبيبتي؟

ـ ربما من الأفضل أن اشرح هذا كتابة.

* * *

Aml
www.liilas.com

مجلة روايات أحلام

Aml

أنت قدري

كانت ترايسي زهرة في عمر الربيع ولم يكن ذنبها أنها تقع دائماً في المشاكل خصوصاً عندما يتعلق الأمر بكريس غاليهار، ولكن كريس قرّر أنه تحمّل ما يكفي منها وأن الحل الوحيد لمشاكلها هو الزواج بها.

علمت ترايسي أن هذا الزواج لن يكون فراشاً من ورود، فقلب كريس يعيش في خريف دائم منذ أن أضاع حبه السابق، أما قلبها فما زال عطشاً لأولى قطرات الحب...

ولكنها لم تجد طريقة أخرى للحياة سوى مع حبه، ثم ذاقت طعم العذاب في أن تُحِب ولا تُحَب. فهل ينتهي دورها عندما تعود حبيبته السابقة؟ أليس الحب هو التضحية من أجل من نحب؟

www.liilas.com

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦د.	مصر ٤ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١,٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.	السعودية ٧ر.	عمان ٦٠٠ب.	العراق